الرجل السابع

حينما تصبح الدنيا مجرد حكاية

صالح الخليف

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

الرجل السابع

حينما تصبح الدنيا مجرد حكاية

صالح الخليف

صالح عبدالعزيز الخليف

صحافي وكاتب سعودي

رئيس تحرير صحيفة الرياضي

صدر له:

نزار قباني حلال أم حرام (2005) بيروت.

هؤلاء.. تساؤلات الذات بحثاً عن الهوية الحقيقية (دار بيسان ـ بيروت) 2007.

جلطة.. ومات (دار مدارك) 2015

قبل البداية

.. أما أنت فلست سوى حكاية، وصدقني إنها تستحق أن تروى وتقال وتتناقلها الأفواه.. فالإنسان مهما كان هو أصل الحكاية..

لست سوى حكاية لكنها تستحق أن تروى.. هذه هي حياتك باختصار.. حياتك وحياة كل من حولك.. لاضرورة ملحة أن تكون شهيراً ومعروفاً وعلماً في رأسه نار حتى يتأتى للآخرين أن يجعلوا منها قصة تلوكها الألسنة في لحظة هجوع الأنفس وسرحانها..

وكم من قصة عظيمة ضاعت وتاهت في زحام الأيام والسنين، وكم من رواية نبيلة فيها من العبر والمواعظ والدروس ما يكفي أجيالاً متعاقبة، حفظت بين أوراق صفراء تآكلت مع تعاقب الليل والنهار على مكتبة منسية في قرية هجرها أهلها قبل ثلاثة عقود.. وكم من حكاية أسطورية صار الواقع نفسه مسرحاً، لها لولا أنها تراكمت عليها حالة النسيان التي أنعم الله بها على عباده، فغابت عن الأنظار وأصبحت سراباً يحسبه الظمآن ماء.. إنها الإنسانية بكل أبعادها وتجلياتها وغرائبها التي تبدو من قاسية أحياناً أقل من الوقوف أمامها في حالة ذهول واستغراب..

أما أولئك الرواة من مهندسي الأحداث ومجمليها وناقليها إنما يتحولون إلى أصوات تستسيغها الأسماع بقدراتهم المنفردة على رسم صورة يصعب على سواهم نسجها..

انظر حولك بتمعن يشوبه الهدوء.. هدوء لاتسبقه العواصف ولا تعكر صفوه هوامش على ناصية الطريق.. الدنيا بأسرها قصصٌ تتشابك كما تتشابك الليالي الهادئة في أزمنة أهل البادية..

تارة للماضي نعود.. وتارة في الحاضر ذاته بكل تفاصيله نعيش ونتسمر.. وتارة نغوص في خيال لايختلف مع الواقع إلا في تلك الجزئيات التي لا تستحق الذكر..

حكايات تشبه بعضها بعضاً لتعطينا يقيناً يتجاوز كل الشكوك، أن الدنيا من مشرقها إلى مغربها حكاية تترجمها الأزمنة والأمكنة والوجوه المختلفة..

الرجل السابع ما هو إلا حكايات تتجرد من ردائها لترتدي أثواباً قد لا تتناسب مع قياساتنا وأمزجتنا وذائقتنا.. إنما هي في أول المطاف ونهايته إلهاء للأنفس بعيداً عن آثارها وتأثيرها ومؤثراتها.. إنما الحياة الدنيا قصة ويمكن اختصارها للإفادة والاستفادة.. لا أكثر ولا أقل.

لا نحتاج أحياناً كثيرة إلا إلى ليل بهيم ليتكشف ما وراء عتمته من ضوء وهاج.. هذه هي الدنيا.. أعاننا الله عليها!!

فقيرة ومراهقة وعاشقة

ولدت وسط المقابر حيث يسكن الموتى وتنام الجثث، وتتحول الأجساد إلى رفات..!! حيث الصمت يملأ المكان،حيث العزلة والخوف والليالي الموحشة، والزوايا المهجورة،التى تتكاثر فيها العناكب والقاذورات، وعشب أصفر يخرج من الأرض بلا استئذان..!!

فأبوها فتح عينيه على الدنيا ليجد نفسه حفار قبور، وارثاً مهنة أجداده الذين حفروا قبورهم بأيديهم وعرق جبينهم..!!

وحكم عليها مصيرها المؤلم وقدرها المحتوم أن تعيش أيامها ولاترى إلا وجوهاً اعتلاها الحزن وأعيناً غرقت بدموعها.. ولاتسمع سوى اصوات البكاء والنحيب وعبارات الرثاء يتبادلها الناس بعد كل جنازة..!!

وحينما بلغت الخامسة عشرة من عمرها عرفت لأول مرة أن والدتها الطيبة أمضت عشرين عاما في ملجأ للأيتام قبل الزواج من والدها..

وتحدث المفاجأة.. مفاجأة صنعت المعجزة وغيرت كل شيء فبدلاً من أن يزيد هذا الخبر القاسي والقديم أوجاعها ويضاعف آلامها فإذا به يفتح لها أبواب الحياة من جديد ويتركها تترقب الأيام القادمة بروح التحدي والأمل والثقة.. لكن كيف هي الوسيلة؟ وأين هي الغاية؟.. وأي طريق سيحتوي حلم مراهقة لم تدخل مدرسة وحرمت من متاع الدنيا.. لا تعرف الألعاب والحلوى والزينة.. تعرف تأكل وجبة واحدة في اليوم وتعرف أنها أنثى، وتعرف تنام وتستيقظ وتساعد أمها وأبيها في حفر القبور...!!!

واستمرت أياماً وأسابيع تترجم داخل روحها البريئة ونفسها المتقدة بالانتظار ما قاله الشافعي (دع الأيام تفعل ما تشاء).. كانت رغم جهالتها وضلالها بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة إلا أنها تثق بجمالها وفتنتها وحلاوتها وسحر ملامحها الصحراوية.. وكانت تردد وسط قلبها معنى أروع قصيدة كتبها نزار قباني.. (صار عمري خمسة عشرة.. صرت أحلى ألف مرة).. وفي منتصف شهر أغسطس من العام الماضي كانت تساعد كالمعتاد والديها بنقل الماء في عز النهار.. وتحت أشعة الشمس اللاهبة لتسقط مصابة بنزيف حاد في الدماغ وينقلها أبوها الملهوف بيديه الملطختين بالأتربة والطين وأمها تصرخ وتبكي يطلبان عابر سبيل لنقلها للمستشفى على وجه السرعة ويقرر الأطباء تنويمها في غرفة الانعاش لأن حالتها خطيرة والموت يحاصرها من كل الجهات!!

وبعد أربعين يوما متواصلة تفيق من غيبوبتها الطويلة وتبدأ بالكلام والمشي وتستعيد قواها شيئاً فشيئاً.. ويتولى أحد الممرضين الأجانب رعايتها ومراقبة أوضاعها الصحية لولا

أن الحب سيطر على قلب هذا الشاب الوسيم الذي جاء من بلاد بعيدة بحثاَ عن لقمة العيش فيعشقها بجنون.. ويجد فيها الفتاة التي رسمها كلوحة لن تكتمل متعته بالوجود إلا معها..!!

وظل يتوسل إلى صديقه الطبيب أن يتواصل بقاؤها على السرير الأبيض، وعدم السماح لها بمغادرة المستشفى مع أن صحتها على ما يرام، ويصارحها بمشاعره وتعترف هي الأخرى بأنها وجدت فيه إنساناً يفوق أمانيها بكثير لكنها رفضت بطريقة غريبة فكرة الارتباط والزواج وقالت له وبصراحة الفقراء والمساكين والبسطاء: "..أنا بنت حفار قبور وأنت تحمل مؤهلات طبية وبإمكانك الزواج من أي إنسانة أخرى في مستواك".. وحاول جاهداً أن يقرب المسافة، وذكرها بما حدث للملك إدوارد الثامن أكبر أبناء الملك جورج السادس الذي تنازل عن عرش بريطانيا ليتزوج معشوقته المطلقة الأمريكية مسز سيمبسون.. وخرجت من المستشفى وجاء الممرض ليخطب يدها من والدها في المقبرة وتوافق العروس على مضض لأنها استشعرت سواداً يلوح في الأفق.. وتمر السنة الأولى وزوجها يغمرها بالحب والعطف والحنان وأنجبت طفلا جميلا، وفي فترة ولادتها يدخل هذا الزوج في قصة حب أخرى مع ممرضة ومن نفس الجنسية.. وبدأ الندم يتسلل إليه ويلوم نفسه بأن تزوج ابنة تلك العائلة المعدومة وصار يعامل زوجته كخادمة حقيرة.. فالحب الجديد أحرق كل العواطف القديمة وأصبح يكرهها ويكره طفله أيضا ويذلها ويشتمها ويعايرها بمهنة أبيها ويقول لها بكل وقاحة إن ابنهما سينتهي به المطاف إلى العمل حفارا للقبور مثل جده التعيس.

وتصبر تحت هذا الضغط النفسي الرهيب، ويهرب النوم من أجفانها وتقاطع الأكل والشراب، ثم تنهار فجأة وتموت متأثرة بجلطة في الدماغ.

ويذهب الزوج ليواسي أهلها بعد أن دفنها أبوها بقبر يليق بابنته الوحيدة ويطلب منهم إكمال تربية الابن الصغير ليتفرغ لحبيبته الشقراء.. وقبل أن يخرج من الغرفة الضيقة شبه المظلمة في أطراف المقبرة تقول له الأم وهي تحس بأنه وراء هذه المصيبة: (لا تخاف علينا نحن نعرف نتعامل مع الموت فهو مهنتنا.. المهم أن تعرف أنت كيف تتعامل مع الحياة...)!!

5445

حياته الشاذة ونزواته الشيطانية واهتماماته السطحية وشخصيته الغريبة وعائلته المنحرفة وغرقه من رأسه حتى أخمص قدميه بالمحرمات صنعت منه أسطورة.. وهذه هي سنة الحياة لا أكثر ولا أقل.. وليس هناك تفسير آخر، فربما تسمع أو تواجه حقيراً وسخفياً وتافهاً وسافلاً ومع ذلك ينال الشهرة وينتزع المجد ويحصد الإعجاب ويملك الثروة..

وأكثر من يستحق تمثيل هذا النوع من البشر هو الإيطالي كازانوفا الذي أمضى أيامه كلها في معاشرة النساء الساقطات.. لدرجة أنه أصبح رمزاً للعلاقات الخارجة عن القانون.. أراد أن يصبح شاعراً ففشل.. أراد أن يسجل نفسه كفيلسوف فلم يجد أحداً يهتم بموهبته لأنه بلا موهبة.. تنقل بين العواصم الأوروبية بحثاً عن مكان وسط الأدباء والكتاب وفي كل مرة ينسى هذا الطموح ويجري وراء النساء.. وحينما تجاوز الخمسين من عمره وبدأت قواه تنهار وصحته تتراجع عمل أميناً لمكتبة أحد أثرياء ألمانيا، وفي هذه المكتبة شعر بالفراغ وقرر أن يستغل ما تبقى من أيام العمر بكتابة مذكراته التي جاءت في 4545 صفحة وفيها تحدث كثيراً عن علاقاته المشبوهة ومغامراته وامتهانه السحر والشعوذة وإيمانه بالخرافات وظلت هذه المذكرات حبيسة الأدراج أكثر من ستين عاماً وحينما جاء وقت خروجها للناس والضوء قام الأستاذ الجامعي الفرنسي افارغ بحذف 1045 صفحة ومارس عليها رقابة صارمة لإزالة المخالفات التي كانت تخدش الحياء كما كان يقول.. واعترف كازانوفا أنه لم يعرف في حياته سوى 132 امرأة.. وفي آخر مذكراته قال: مهما عرفت من النساء.. فكل واحدة عالم مختلف تماماً، فأنا لم أعرف إلا بعضهن، أما الباقيات فيحتجن إلى مليون سنة أخرى..

وعند المجانين الخبر اليقين

ما لذة العيش إلا للمجانين.. هذا ما كان يردده قيس بن الملوح أشهر مجنون على مدار التاريخ، وإذا لم تصدقه فهناك ألف دليل غيره يجعلك على أقل تقدير تحترم وتحب الجنون والمجانين.

والعرب يقولون: خذوا الحكمة من أفواه المجانين.. والناس أصبحوا يربطون الجنون بكل شيء يبهرهم وينتزع إعجابهم وينال رضاهم.. والمعلقون على مباريات الكرة يصفون أي لعبة خطيرة وذكية بالمجنونة.. والشاعر الأمريكي روبرت فروست كان يصر دائماً على أن الأشياء العظيمة التي نعرفها هي من صنع المجانين.. وغازي القصيبي (رحمه الله) كتب أجمل أعماله الأدبية عن الجنون في روايته الاستثنائية (العصفورية) وهو اسم مستشفى الأمراض العقلية في بيروت من خلال حكاية ساخرة تلخص الواقع العربي المرير.

ويكفي المجانين فخراً وعزة وشموخاً أن الفيلسوف الألماني الكبير صاحب الكلمات المباشرة والواضحة والقوية فريدريك نيتشه واحداً منهم، حيث أصيب بالهوس في آخر حياته وادخل مستشفى المجانين وانهالت عبقريته وقدم أروع مؤلفاته في كتابه (أختي وأنا) الذي احتفظ به أحد زملائه المرضى ولم ينشره إلا بعد رحيله بخمسين عاماً وفي هذا الكتاب الرومانسي يعترف نيتشه بشيء من الشذوذ الفطري الغريب حينما كشف أنه عاش مع شقيقته قصة حب من طرف واحد.. ويقول نيتشه في هذا الكتاب: "تذوقت السعادة وعرفت حقيقتها مع امرأتين لكنهما غانيتين.. وعرفت التعاسة أيضاً مع امرأتين إحداهما كانت جميلة جداً لكنها للأسف أختي.. والثانية يهودية وذكية لكنها رفضت الزواج مني"،

أما كيف أصيب نيتشه بالجنون فيقال إنه كان رقيقاً وناعماً لأنه تربى في أحضان النساء بين أمه وخالته وأخواته، فأبوه مات وهو طفل لم يبلغ الرابعة من عمره.. وعندما كان يتجول ويمشي في شوارع روما رأى رجلاً يضرب حصاناً بالكرباج فسقط نيتشه مغشياً عليه من هول المشهد ثم أصيب بالجنون.

وشاعر ألمانيا جيتيه الذي يعد أبرز من كتب القصائد العاطفية في تاريخ أوروبا كان مصاباً هو الآخر بالجنون الدوري.. كما سماه الأطباء.. والروائي المغربي الخطير محمد شكري ظل شهوراً يتعالج داخل مستشفى المجانين في طنجة.. وأيضاً الفنان العبقري الهولندي فان جوخ الذي يعد أهم أساتذة المدرسة الانطباعية.. هو الآخر أصيب بالجنون ودخل مستشفى الأمراض العقلية وقطع أذنه قبل أن يطلق الرصاصة على رأسه ويموت منتحراً..

وقبل أعوام عاشت الهند صدمة كبيرة عندما اكتشفت اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان أن مواطناً عاقلاً بقي مسجوناً (50) عاماً من عمره في مستشفى المجانين والقصة المضحكة

المبكية أن الأطباء أخطأوا في تشخيص حالة شاب فقير ومعدوم يدعى (ماتشال لالونج) واعتبروه مجنوناً وأمروا باحتجازه داخل مركز للأمراض العقلية في منطقة نائية شمال شرق البلاد، وكان لالونج شاباً يافعاً لم يتخط الثالثة والعشرين وحينما تجاوز السابعة والسبعين أمروا بإطلاق سراحه عندما تأكدوا أنه يعاني من حالة صرع فقط وقال وزير الداخلية بولاية أسام ركيبوا حسين: "لم نكن نعلم بحالة ماتشال لالونج، لكن بمجرد علمنا أتممنا على الفور كل الإجراءات القانونية لضمان منحه الحرية والتعايش مع الأصحاء من جديد وأنا أشعر بالأسى من أجله"،.. وأعتقد أننا نحن أيضاً يجب أن نشعر بالأسى من أجله، فخمسون عاماً بين المجانين فعلاً تستحق الأسى.. وياعيني على الأسى.. ولعل عزاءنا الوحيد لهذا الهندي المغلوب على أمره ما قاله الأديب الأمريكي العظيم مارك توين: "لا يعرف السعادة ولا يدركها إلا المجانين.. ولهذا فإن الجنون هو أثمن هبة إلهية بعد هبة الموت"

وكفار قريش اتهموا أعقل الناس رسولنا عليه الصلاة والسلام بالجنون وجاء الدفاع والرد من فوق سبع سماوات.. والمولى سبحانه وتعالى يقول في سورة التكوير "وما صاحبكم بمجنون"،..

والقلم في الإسلام مرفوع عن ثلاث، النائم حتى يستيقظ والصبي حتى يكبر، والمجنون حتى يعقل.. وشاعر المهجر اللبناني جبران خليل جبران يرى أن بين الجنون والعبقرية خيط أرفع من بيت العنكبوت.. وأنت حاول أن تصبح مجنوناً.. يمكن تضرب معك وتصبح عبقرياً.. فإما حياة تسر الصديق وإما جنوناً يغيظ العِدى..

هذا الحبيب يا محب

لا تتعب نفسك بالبحث عن أدلة وبراهين وأحداث ووقائع وقصص وحكايات!!.. المسألة سهلة وبسيطة ولا تحتاج إلى لف ودوران.. المطلوب منك بس تذكرهم برسولنا وحبيبنا وقدوتنا ما استطعنا.. ذكرهم بذلك الرجل الأعظم على مدار التاريخ كله.. وكذا بتطلع كسبان وربحان.. والميدان ياحميدان!!

فإذا سمعت من يقول إن الحب مجرد لعبة وخرابيط وكلام فاضي وأوهام وأفلام وأغاني ومسلسلات وروايات المكتبة الخضراء فذكرهم بمن قال عنه العزيز الحكيم (وإنك لعلي خلق عظيم).. إذا سمعتهم يقولون إن الحب عيب وخطيئة وجريمة وعار وفضيحة وكارثة ومصيبة فذكرهم بمن قال عنه الله سبحانه (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

وكلما سمعتهم يسخرون ويستهزئون أو يضحكون ويستنقصون من هذا الحب فذكرهم.. أجل ذكرهم بخير من وطأت قدماه الثرى.. والذكرى تنفع المؤمنين.

وفي كل الإصدارات التي تملأ الدنيا لن تجد عنواناً أجمل ولا أعذب ولا أحلى من كتاب "هذا الحبيب يا محب" الذي ألفه العلامة أبوبكر جابر الجزائري رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.. وفي صفحاته يحكي مسيرة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وكيف كان يملك قلباً مرهفاً وروحاً عذبة رقيقة ونفساً عطوفاً عاشقة.

كان حبيبنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم مثالاً ونموذجاً لكل شيء في الحياة وأولها الحب.. وقد نصح الذين طلبوا منه المشورة وأمرهم أن يزوجوا ابنتهم للفقير الذي تحبه وترغبه وليس للثري الذي يريدونه والعروس لا توافق عليه.. وقال لهم "لم نر للمتحابين مثل النكاح".. ولم يكن حبيبنا ورسولنا عليه أفضل الصلاة والتسليم يجد حرجاً في التصريح بحبه الكبير لزوجته الثالثة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من بين زوجاته الاثنتي عشر.. وكان يقسم بين زوجاته ونسائه ويعدل في كل شيء إلا ما لا يملك كما يقول في الحديث المشهور "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك".. ويتفق أكثر المفسرين أن هذا الحديث إشارة واضحة وصريحة إلى مكانة عائشة في نفسه، ويروى أيضاً أن عمرو بن العاص سأل الرسول صلى الله عليه وسلم:" من أحب الناس إليك يا رسول الله فقال: "عائشة".. فقال عمرو بن العاص: "ومن الرجال يا رسول الله".. فقال عليه الصلاة والسلام: "أبوها".. وقال الرسول لعائشة ذات مرة: "إني أعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عني غضبى، أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت عني غضبى قلت: لا ورب إبراهيم".

وفي آحد الأيام اختلف رسولنا وحبيبنا معها فقال لها "هل ترين آن يحكم بيننا آبوعبيدة بن الجراح؟ فقالت: لا.. هذا رجل لن يحكم عليك لي.. فقال الرسول: هل ترضين بعمر بن الخطاب؟ فقالت عائشة: لا.. أنا أخاف من عمر.. ثم قال لها: هل ترين بأن يحكم بيننا والدك أبوبكر الصديق فقالت: نعم.. فجاء أبوبكر وطلب منه الرسول أن يحكم بينهما، واستغرب أبوبكر وقال: أنا يا رسول الله!.. وبدأ عليه الصلاة والسلام يحكي ويروي أصل خلافه مع حبيبته وزوجته.. وقاطعته عائشة قائلة: أقصد يا رسول الله "أي قل الحق والعدل".. فغضب أبوبكر وخرج عن هدوئه وحكمته وضربها على وجهها ضربة قوية فسالت الدماء من أنفها وقال لها: من يقصد إذا لم يقصد رسول الله، فاستاء عليه الصلاة والسلام وقال: ما هذا أردنا.. وقام بنفسه وغسل الدم عن وجهها ومسح بيده الطاهرة آثار الدم من ثيابها".

وكان يدللها ويدلعها كثيراً، وإذا شربت من الإناء أخذه بعدها فوضع فمه في موضع فمهما وشرب.. ولما اشتد المرض بالرسول صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه وذهب ليعيش آخر أيام حياته معها وكان كلما أحس بالحمى والألم وضع رأسه الكريم في حجرها وهي تبكي وتدعو الله أن يخفف عنه حتى قبض الله روحه ومات بين يديها ثم دفن في بيتها الذي دخل فيما بعد حدود المسجد النبوي.

وبعد هذا الحب الكبير قالت عائشة: "فضلت على نساء الرسول بعشر ولا فخر، كنت أحب نسائه إليه، وكان أبي أحب رجاله إليه، وتزوجني لسبع ودخل بي لتسع ونزل عذري من السماء، واستأذن النبي نساءه في مرضه قائلاً: إني لا أقوى على التردد عليكن، فاذنّ لي أن أبقى عند بعضكن، فقالت أم سلمة: قد عرفنا من تريد، تريد عائشة، قد أذنا لك، وكان آخر زاده في الدنيا ريقي، فقد استاك بسواكي، وقبض بين حجري ونحري، ودفن في بيتي).

عليك أزكى سلام، ولك كل الحب أيها المحب العظيم.. وجمعنا الله معك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فضيعها الإنسان والكلب حافظ

الخليفة العباسي المتوكل دخل التاريخ بطريقته الخاصة، فهو أول إنسان على وجه الأرض يُقال له: يا كلب ولا يغضب ولا يلتزم الصمت فقط بل يبتسم ويقول (هل من مزيد)!..
وحدث هذا حينما مدحه الشاعر البدوي علي بن الأجهم بقصيدة طويلة قال في أحد أبياتها:

أنت مثل الكلب في الوفاء

وكالتيس في قرع الخطوب

.. هكذا دخل المتوكل التاريخ وكل واحد يدخل التاريخ بمزاجه وبالشكل واليوم والطريقة التي تناسبه.

وكما قال الدكتور تركي الحمد: ولايزال التاريخ مفتوحاً.. أما نحن فليس المتوكل قضيتنا ولا ابن الأجهم سالفتنا ولا التاريخ أيضاً حكايتنا.

مربط الفرس هو الكلب.. نعم الكلب أعزكم الله ورفع مقداركم وأعلى شأنكم.. وفي الذاكرة الإنسانية هناك عشرات الكلاب التي تركت لنفسها مكاناً لن يمسه الزمن ولو بعد حين.

ولعل من الإنصاف والحق أن يكون على رأس هذه القائمة قطمير وهو اسم كلب رافق أصحاب الكهف في القصة المشهورة التي رواها القرآن الكريم وكيف عده الله سبحانه وتعالى مع الصالحين حيث يقول جلت قدرته (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم).

أما الكلب الذي يستحق كل أوسمة الشرف ونياشين التقدير وقلادات الانجازات فهو من ساهم بعد رحمة الله بدخول عاهرة إسرائيلية إلى الجنة، والقصة أيضاً مشهورة ويروي الحديث الصحابي الجليل أبوهريرة رضي الله عنة وأخرجه الإمام البخاري حيث يقول عليه الصلاة وأتم التسليم (بينما كلب يطيف كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فسقته فغفر الله لها).

والخليفة العباسي هارون الرشيد استعان بكلمة كلب ليرد بها على تجاوزات ملك الروم نقفور الذي كتب رسالة استفزازية جاء فيها (من نقفور ملك الروم إلى ملك العرب.. اما بعد فإن الملكة ايريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الأخ فحملت إليك أموالها لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد بنفسك وإلا فالحرب بيننا وبينك).

فأثارت هذه الرسالة غضب الرشيد ورد عليه برسالة موجزة ومعبرة ومباشرة معلنة الحرب قال فيها: (من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام).

ودارت بعد هذه الرسالة التي حملت كلمة كلب معارك طاحنة قتل خلالها هارون الرشيد أربعين ألفاً من جيش الروم!!

وفي صراع آخر بلادماء ولا أشلاء ولا ضحايا حصل أحمد شوقي على لقب أمير الشعراء باعتراف منافسه التقليدي على زعامة كتابة القصيدة العربية في تلك الأيام شاعر النيل حافظ إبراهيم.. وبدأ التحدي حينما اتفقا على أن يكتب كل منهما بيت شعر واحد فقط يهجو فيه الآخر فقال حافظ إبراهيم:

يقولون إن الشوق نار وحرقة

فما بال شوقي أصبح اليوم باردا

فرد عليه أحمد شوقي بقوله:

استودعت إنساناً وكلباً أمانة

فضيعها الإنسان والكلب حافظ

وهكذا وصف شوقي حافظ إبراهيم بالكلب لكن دون أن يستطيع أحد إدانته ليعترف إبراهيم بعد ذلك بالشاعر الفذ أحمد شوقي واستحقاقه لقب أمير الشعراء.. والسبب بالطبع.. الكلب!!

وقبل خروج السياسي المصري الدكتور أيمن نور في عهد الرئيس الأسبق حسني مبارك من السجن اضطرت زوجته جميلة إسماعيل إلى بيع كلابها الخمسة من فصيلة "سان بانار" لتواجه نوائب الدهر وتصرف على فلذات أكبادها ابنيها شادي ونور.. ونشرت إعلاناً وحددت قيمة الكلب الواحد بخمسة آلاف جنيه.. شوفوا الكلاب كيف تنقذك من الأزمات المالية وتغنيك عن سؤال اللي يسوى واللي ما يسوى!!

وقبل سنوات أوصت ثرية أمريكية تدعى ليونا هلمسلي بمنح كلبها (12) مليون دولار قبل وفاتها بأيام ليصبح الكلب الذي يدعى (ترويلي) أغنى ابن كلب عرفته البشرية!!

هذه صفحة من تاريخ الكلاب فهل تعتقد الآن أن هناك كلاباً لا تستحق الاحترام؟!

العريس الثالث

عندما تفشل في أي مجال لا تجرب غيره ولا تذهب بعيداً.. حاول أن تسأل نفسك لماذا وكيف فشلت؟ ثم انطلق من نفس نقطة الفشل وستنجح..

أقصد إذا فشلت في الطب أو الهندسة أو التدريس أو لعب الكرة أو الغناء.. فلا تهجر وتودع مهنتك وتهرب إلى وظيفة أو عمل آخر، بل استمر في نفس الدائرة، ولكن خطط من جديد ورتب أمورك وصدقني ستنجح كما فعلت الأمريكية جيني سايل.. والذي لا يفشل أبداً لن يكون من الأغنياء في يوم من الأيام كما كان يقول "سبيردون".

وجيني هذه فتاة ولدت في قرية على مشارف ولاية تكساس وعانت مرارة الفقر مع والديها.

وطوال سنوات المراهقة وبداية الشباب والاندفاع نحو الحياة دخلت وعاشت قصة حب عاصفة مع ابن الجيران، وعندما بلغت العشرين وجدت نفسها عروساً بين أحضان فارس أحلامها، لكن بعد عام فقط تركها مع طفلة ولقب مطلقة وذهب يبحث عن امرأة أخرى، ثم تزوجت جيني أحد الأطباء ولم يستمر هذا المشروع طويلاً لتجد نفسها مطلقة للمرة الثانية على التوالي.

وتجلس جيني مع نفسها تبكي وتتحسر وتتألم وتكتشف فجأة أن الحزن والوقوف على بقايا الماضي ليس إلا نوعاً من الانتحار البطيء.. وتستعيد قواها وتقرر الانتقام وتعلن التحدي.. فماذا فعلت؟

أبداً لم تقتل حبيبها والد طفلتها، ولم ترتكب جريمة في حق من يعالج الناس.

قررت جيني أن تتزوج، واختارت بنفسها مواصفات الرجل الثالث قبل أن تراه أو حتى تسمع صوته، فهدفها الوحيد أن يكون مليونيراً وثرياً، فاستقالت من عملها مدرسة للأطفال وباعت بيتها الصغير واستأجرت شقة في حي يسكنه الأثرياء وسط نيويورك والتحقت بوظيفة متواضعة في البورصة.. وكل هذا من أجل أن تلتقي فريستها في أسرع وقت.. وبالفعل نجح المخطط وتزوجت جيني كما تريد، لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد.. فماذا فعلت جيني؟

لم تخف واقعها أو تلعب دور العاشقة على العريس الجديد، وإنما اعترفت منذ البداية بأن هذا الارتباط كان صفقة لا أكثر ولا أقل.

والغريب أن الزواج استمر، والغريب أكثر أن جيني ألفت كتاباً بعنوان "كيف تتزوجين ثرياً؟" وتقدم من خلاله عشرات النصائح والدروس والطرق الملتوية وأحياناً الأساليب القذرة لكل امرأة ترغب وتتمنى الزواج برجل يملك المال، وافتتحت جيني معهداً صغيراً تعطي خلاله دروساً أسبوعية لأكثر من 60 امرأة جميلة، وفي كامل أناقتهن داخل فصل دراسي واحد لمعرفة الوسيلة الأفضل للإيقاع بمليونير العمر.

وتقسم جيني الأثرياء إلى أربعة أنواع: أولهم العصامي وهذا يعشق المرأة الجميلة والفاتنة ولا يتردد في إغراقها بالفلوس حتى تهتم بأناقتها وجسدها وملابسها.

والنوع الثاني الذي ورث الملايين ويريد التجديد وتجذبه الموهبة والمهارة ويقع عادة في عشق وحب الراقصات والشاعرات والمغنيات، ويكره بنات الأثرياء لأنه لا يود تكرار نفس قصة أمه وأبيه.

والنوع الثالث هو الذي ورث لكنه مستبعد من أوساط الأثرياء، ويتمنى أن يفاجئ عائلته بقرارات غريبة مثل الزواج من امرأة فقيرة.

أما النوع الرابع والأخير فهو الذي ورث المال ويشعر بالذنب كون الكثير من الناس حول العالم يموتون جوعاً، ولأنه لا يستطيع مساعدة الجميع فهو يترك هذه المشاعر الإنسانية تتحرك بقوة في داخله من خلال الاحتواء والزواج من امرأة لم تتذوق طعم وحلاوة المال.

ثم تقدم جيني عشرات النصائح لأي امرأة تحلم بالزواج من أبناء الثروات، وأهما وأبرزها العفة، فالمرأة التي تفقد كرامتها وكبرياءها وشرفها عن طريق علاقة محرمة لن تفوز في النهاية بالحلم المنتظر، لأن الأثرياء يعتقدون أن بمقدورهم شراء كل شيء، وحينما تمتنع الفتاة عن تحقيق رغباتهم بتلك الطرق القذرة يبدأ الإصرار في داخلهم بتحقيق تلك العلاقة بطريقة شرعية، وتطالب جيني أيضاً ألا تستمر أي علاقة أكثر من ثلاثة أشهر، فإذا لم يكن الثري لدية قناعة بالزواج فالأفضل البحث عن رجل آخر، وتقول أيضاً إن الأمور تكون واضحة منذ البداية، والمقياس دائماً هو المال فإذا قال لها أي رجل ثري إنه يحبها دون أن يصرف عليها بإسراف وبذخ فهو كاذب ونصاب!!.

وتقدم جيني أيضاً دورات سريعة للنساء اللاتي لا يحالفهن الحظ بالزواج من أثرياء، حيث يتحول الرجل من فريسة إلى عدو يجب تدميره.

إن قصة جيني محاولة للتعايش مع الحياة.. وما الحياة إلا محاولة للتعايش.

مكافأة وانتقام

هناك وجه مشرق بالإنجازات والبناء والإرادة والحكمة والقيادة والصرامة والقوة.. وهناك في نفس الصفحات وجه مظلم بالدماء وبالموت والقتل والإعدام والإجرام والدمار..

وهذه هي باختصار سيرة أعظم خلفاء بني العباس أبوجعفر المنصور الذي حكم تسعة عشر عاماً استطاع خلالها رسم الدستور السياسي والإداري والعسكري للدولة، لدرجة أن العديد من النقاد والمؤرخين يعتبرونه المؤسس الحقيقي للدولة العباسية حتى وإن كان ثاني زعمائها.. وكانت أبرز أعماله بناء مدينة بغداد وأطلق عليها اسم مدينة السلام لسببين: أولهما أن دار السلام أحد أسماء الجنة، ثم وقوعها على نهر دجلة الذي يسمونه الناس نهر السلام، لكن المنصور لم يكن من أهل السلام دائماً.. فحين استقرت الأوضاع الأمنية والاجتماعية وتأكد من قدرته العسكرية على مواجهة أي مشاكل وأزمات استدعى أبا مسلم الخرساني وهذا الرجل كان صاحب اليد الطولى والفضل الكبير في مساعدة العباسيين على قيام دولتهم وإنهاء حكم بني أمية، فأراد المنصور أن يرد له المعروف ولم يكافئه بإحدى الولايات أو يغرقه بالمال والهدايا والعطايا، أو على أقل تقدير يقول له شكراً وما قصرت ويسلمه وسام بني العباس.. لكنه اختار مكافأة من نوع خاص فماذا فعل ؟.. كتب نهايته داخل خيمة صغيرة على يد جنود متواضعين.. وحينما رأى أبومسلم الغدر ينبض من عيني المنصور قال له: "يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك"، أي اتركني أقاتل أعداءك حتى أموت فرد عليه أبوجعفر: "وأي عدو أعدى منك".. فقتلوه جزاء له وردعاً للأبطال أمثاله.. وهكذا تكون المكافآت وإلا فلا.

أما ابن المقفع فحكايته تقطع القلب.. فعندما خرج والي الشام عبدالله بن علي وهو عم المنصور على الحكم وأعلن التمرد نجح المنصور في إحباط محاولة الانقلاب وهرب ابن علي إلى أخواله الذين رفضوا تسليمه للمنصور إلا إذا أعطاه الأمان، فوافق أبوجعفر وترك لهم كتابة الوثيقة التي تولى صياغتها ابن المقفع، وحينما قرأها المنصور فقد أعصابه وغضب لأنها لم تكتب بطريقة مؤدبة وأمر بإعدام كاتبها فجاؤوا بابن المقفع وأشعلوا ناراً هائلة وسط البصرة وصاروا يقطعون جسده ويلقونه في النار حتى مات واستوى على طريقة (الشيش طاووق) تحت الرماد.. وهكذا يكون الانتقام وإلا فلا.. إن هذا التاريخ إذا كنا مضطرين لتصديق كل مافيه فإنه مليء بالانتقامات التي ترتدي أقنعة المكافآت.. حرمنا الله وإياكم منها ومن مانحيها وموزعيها..!

نصف مجنون

لا أحد يعرف الكثير عن حياة أبوالطيب المتنبي، فعلى الرغم من أن قصائده خلدها الزمان وحفظتها الأجيال غير أن سيرته الذاتية لم يصل منها إلا القليل الذي لا يتوازى أبداً مع عطاء ضخم أثرى به المكتبات العربية وسجل نفسه في صدارة الشعراء، خاصة وهو يعتمد اللغة المباشرة في الوصف والتعبير والتجسيد، والحديث عموماً عن قصائد المتنبي نال نصيب الأسد والذئب وأسماك القرش من الدراسة والبحث والتحليل، فيما بقيت أسراره وحياته الخاصة محبوسة في الظلام.

أما لماذا حدث هذا فإن التفسير الوحيد على ما أظن يكمن كون المتنبي مصاباً بأمراض مزمنة ليس لها علاج، ولو قدر وعاش في زمن غير تلك الأيام لانتهى به المطاف إلى المصحات النفسية ومستشفيات الأمراض العقلية!!

أجل كان هذا الشاعر العظيم نصف مجنون وربما يكون انفراده عن كل أصدقائه ومنافسيه بسبب أفكاره المتطرفة وأحلامه العجيبة.. فعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره لم يعلن الثورة على خلفاء بني العباس ولم يشكل عصابة من المتمردين وقطاع الطرق، وإنما ادعى النبوة!!

ذلك الصبي المهووس يريد أن يصبح رسولاً نبياً.. وقد تبعه جماعة أذهلهم بفصاحة لسانه وسلاسة أسلوبه فقبض عليه والي حمص الأمير (لولو) وأودعه السجن حتى كتب قصيدة يستعطفه بها، فأمر بإطلاق سراحه وخرج حاملاً لقب المتنبي!!

وعندما عاد للحرية من جديد وضع نصب عينيه هدفاً واحداً عاهد نفسه أن يقاتل من أجله حتى النهاية.. كان المتنبي يحلم أن يصبح ملكاً فتحول إلى شحاذ ومتسول عند بلاط سيف الدولة الحمداني، فتغزل به وصنع منه أسطورة على الورق حتى دخل تاريخ الأدب العربي من أوسع أبواب المجد.. فسيف الدولة هذا كان حدثاً شعرياً ساهم بطريقة مباشرة في تفجير ينابيع إبداعات المتنبي، أما في مجال الإماراة والحكم والخلافة فإنه رقم على الهامش، وحينما تأكد شاعرنا أن مراده لن يتحقق عند سيف الدولة الذي أغدق عليه المال لولا أن الغاية لم تكن ذهباً ومجوهرات ولا فضة، وإنما إمارة تطفئ نار غروره وتشفي غليله وأيقن أن أمنيته لن تتحقق، لم يكتف بإعلان الوداع والرحيل وإنما رمى قصيدة هجائية مؤدبة يلوم فيها سيف الدولة على تجاهل أحلامه، فقال من بين أبياتها الخالدة:

يا أعدل النــاس إلا في معاملتي

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

ثم اتجه إلى مصر حيث كافور الإخشيدي الذي ظل المتنبي يتوسل عند قدميه طلباً للولاية، لكن كافور لم يكن أحسن من سيف الدولة واكتفى بمنحه بين حين وآخر دنانير لم تمنع المتنبي أن يشتمه بأقسى كلمات عرفها ديوان العرب!!

ومات المتنبي على يد عصابة من بني أسد اعترضت طريقه في الصحراء، فهرب الشاعر الجبان فقال له خادمه، كيف تهرب يا سيدي وأنت القائل" الخيل والليل والبيداء تعرفني"فأخذته العزة بالإثم فعاد إليهم فمزقوا جسده وتركوه يسبح في دمائه حتى فارق الحياة!!

هذا هو المتنبي.. أراد أن يكون في البداية من الأنبياء ثم أراد أن يكون من الخلفاء ثم أراد أيضاً أن يكون من الأبطال العظماء.. فما رأيك أنت؟! أليس مجنوناً أو نصف مجنون على أحسن حال؟!!

هذا جزائي

أجمل حاجة في الدراما المصرية تجسيدها المستمر لقيمة التعليم وضرورة أن يحصل الشاب على شهادة جامعية تكون له سنداً أمام نوائب الدهر.. ونادراً ما يخلو أي مسلسل مصري من مشهد يوجه فيه الأب المكافح عتاباً قاسياً لابنه المتخرج حديثاً من الثانوية العامة، بسبب اختياره تخصصاً لا يتوافق مع الحلم الذي انتظرت الأسرة البسيطة تحقيقه سنوات طويلة، فتتكرر نفس الكلمات والعبارات مع موسيقى حزينة.

أنا اللي وكلتك.. وكبرتك وصرفت عليك دم ألبي.. وعلمتك وربيتك أحسن تربية.. وفي الآخر يكون دا جزائي؟

وبغض النظر عن الحسرة والتفسير الخاطئ لرد المعروف للأهل والوالدين، إلا أن هذا الحوار يظل إشارة واضحة وصريحة بأن العلم وحده القادر على قيادة الإنسان الضعيف والفقير لاحتلال مكانة اجتماعية لها قيمتها الاعتبارية مع توفير الدخل المالي المناسب.

العلم نور وسلاح،لكن الدنيا فعلاً تغيرت، فقد عرضت قناة فضائية عربية برنامجاً عن أماني الأطفال إذا كبروا، وراحت المذيعة تسأل الصغار في الأسواق بحضرة أهاليهم عن أحلامهم وكانت الإجابات مفاجئة وصاعقة ولا تخلو من الغرابة..

كانت الإجابات القديمة لا تخرج عن الطبيب والمهندس والطيار وضابط الشرطة والمدرس، لكن الإجابات الحديثة دخل فيها لاعب الكرة والمطرب والفنان والممثل.. إننا بالفعل نحتاج إلى الزمن القديم ونضطر لوصفه بالزمن الجميل، وهنا بلاشك يأتي دور الأب والأم والإخوة والمدرسة في إقناع جيل المستقبل بأن يمارسوا هواياتهم دون الخلط والتداخل بين الهدف الأهم وبين الهواية.. وأيضاً إقناعهم بأن الموهوبين فقط بين اللاعبين والفنانين الذي يحصدون النجاح والملايين ومن ينال المجد منهم قلة لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة.. أما الشهادة والعلم فإن طريقها ممهد أمام الجميع ويحتاج إلى المثابرة والاجتهاد لا أكثر ولا أقل.

تنشر صورها

إذا وقعت عيناك على فتاة جميلة فاعرف أنها كسولة ولا تحب الدراسة وعلاقتها بالمذاكرة والتحصيل العلمي والدرجات العليا وشهادات التفوق ليست على ما يرام.

فلا تتردد أبداً إذا رأيتها ان تقول دون مقدمات: "هذه البنت مش بتاعة علام".

ولن تجد طبيبة من الدرجة الأولى أو معلمة فذة أو موظفة ناجحة إلا وجمالها عادي أو متوسط.

وفي أحسن أحوالها يمشي حالها.. والسبب على الأرجح يعود لأن الأنثى التي تملك قدرات الوجه الحسن تشعر بالأمان ولا تخاف نوائب الدهر وغدر الزمان، لأنها بتفكيرها المحدود تلمس في أعين الآخرين من الأقارب والصديقات والزميلات وبنات الجيران الغيرة والحسد والثناء المستمر والمديح المتواصل.. كونها ابنة عم القمر وشبيهة نجمة سهيل ومن قبيلة (حوريات على الأرض)، وهذا يعطيها دائماً نوعاً من الحصانة ضد أي أزمة ربما تعكر صفو الحياة، فالمرأة آخر طموحاتها وأشهر أهدافها وأكبر أحلامها تتوقف عند محطات الزواج، وتظل الأمومة وتكوين أسرة والعيش مع رجل تحبه وأطفال يملؤون عليها الدنيا منتهى الآمال.

وتحقيق المشروع الأسري لا يحتاج منها سوى هز الرأس بالموافقة، فالخُطّاب أكثر من الهم على القلب.. كل يريدها ويطلب يديها مرة في الصباح ومرة في الليل.. أليست جميلة؟!

والليدي ديانا سبنسر أجمل جميلات القرن العشرين وأسطورة المملكة البريطانية التاريخية سحرت بابتسامتها أعين الناس في كل مكان، حتى توجها الأوروبيون بلقب أميرة القلوب، وكانت امرأة خارج حسابات المنافسة تماماً، واجتاحت أنباؤها وأخبارها القارات، وامتدت شهرتها حتى أقصى قرية على وجه الأرض وكأن شاعرنا الكبير الراحل نزار قباني يعنيها وحدها وهو يقول في إحدى قصائده الخالدة: " أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء"..

وطوال عقد الثمانينيات ومطلع التسعينيات تسابق كتاب القصائد النبطية في منطقة الخليج على نظم آلاف الأبيات لتلك العينين الزرقاوين والقوام الممشوق والأناقة الحضارية وظلوا يتغزلون أحياناً ويدخلون عشيقاتهم في مقارنة مباشرة مع ديانا أحياناً أخرى، وفي هذا السياق يقول أحدهم:

والجوهرة غطت على كل الأوضاع

وشي ديانا يوم تنشر صورها

وفي شبابها أحبت ديانا الأمير تشارلز الذي يكبرها بأحد عشر عاماَ، ولأنها فاتنة ولا يمكن وصفها بسهولة وقع الأمير في أدغال غرامها، ولم تمض أشهر قليلة على تلك العلاقة إلا والعالم يتابع حفل زواج تناقلته الشاشات والصفحات وسار بأخباره الركبان!!

ولا أحد يلومها، فقد كانت تعرف أنها ستحقق ما تريده وفي الوقت الذي تريد، وهذا ما حدث بالتمام والكمال، فكانت الدروس والتعليم آخر اهتماماتها، وتفرغت فقط لقصة شعرها ومكياجها وحلاوتها ولو لم تفعل هذا لخسر العلم الشيء الكثير!!

وأنت أيتها الفتاة الحلوة إذا كنت فاشلة في الجامعة والمدرسة فلا تحزني لأنك مثل ديانا (أم ويليام) وهذا يكفي.. أما إذا خالفت القاعدة وغردت خارج السرب فأمرك غريب فعلاً..!!

ولا أعرف إذا كانت هناك دراسة تؤكد صحة هذه المعلومة.. معلومة أن الجميلة والدراسة مثل الملح والنار.. ولا يهم بالتأكيد من هو الملح ومن هي النار..!

جراح وممثل

ظلموه من حيث لا يعلمون.. وظلم ذوي القربى أشد مضاضة.. كما كان يقول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد.. هذا هو عادل إمام..

وبالتأكيد لا أقصد زعيم الكوميديا المصرية، لكنني أعني عادل إمام آخر لايضحك إلا نادراً.. ولايرسم على وجهه أي ابتسامات عابرة وإنما توحي كل ملامحه بالجدية والمباشرة والثقة والقوة والاعتماد على النفس.. عادل إمام الذي أقصده يعد الآن واحداً من أهم وأبرز أطباء القلب، ليس على مستوى العالم العربي فحسب، بل بلا مبالغة بدأ يسجل نفسه كاسم جدير باحتلال موقع في مقدمة صفوف أصحاب اهم المهن على مدار التاريخ، ويعتبر أول جراح أدخل قسطرة الشرايين التاجية إلى مصر، وأول من تعامل مع التقنيات الحديثة..

ويرفع الدكتور عادل إمام شعاراً خاصاً يتمحور حول عدم الاعتماد على الأجهزة في تشخيص حالة المريض مفضلاً الفحص باليد وسماعة الأذن، ويقول إن زملاءه الأمريكان والأوروبيون يندهشون كثيرا لجدارته في معرفة حقيقة الداء دون الرجوع لتلك الأجهزة..

ولا يخجل الدكتور عادل إمام من القول إن فوزه أيام الثانوية ببطولة رياضية قاده إلى كلية الطلب، حيث كان الطالب يحصل على درجات إضافية، فدخل طب جامعة عين شمس وكان أقل التلاميذ درجات، لكن السنين تمر ويتخرج كأحد المتفوقين ويشق طريقه، ويجري مئات العمليات الناجحة والمعقدة حول العالم..

وقلت لك بأن أهله ظلموه وأقصد أنهم أسموه عادل إمام.. والناس الآن لا تعرف إلا عادل إمام بطل أفلام (رمضان فوق البركان) و (السفارة في العمارة) و(المتسول) و(التجربة الدنماركية).. أما الطبيب الناجح فلا أحد يعرفه لأن اسمه ظلمه وجنى عليه.

حتى الأقوياء

وحده الحب..!! لا شيء سواه يصنع المستحيلات ويروض المتسلطين ويقهر الأقوياء ويحارب حتى اللحظات الأخيرة.. وينتصر!!

والشعراء دائماً يندبون حظهم ومصيرهم من خسائرهم المتوالية في دنيا الغرام، ويلقون باللائمة على العذال الذين لم يعد لهم وجود أصلاً، والحقيقة كما قلت في البداية أن الحب هو الغالب دائماً مهما كان نوع الخصم، فسجلات التاريخ تحفظ عن بكرة أبيها أسماء جبابرة بثوا في قلوب أعدائهم وأصدقائهم الرعب فيما العشق أعادهم أذلاء.. وعلى رأي أبوالغور في مسلسل صح النوم (يقطع الحب شو بيذل).

فهذا هو عنترة بن شداد أشجع رجل في تاريخ العالم العربي الفارس الذي لا يهاب، أبوه عمرو بن شداد العبسي وأمه جارية حبشية، وكان يُعامل معاملة الخدم والرعاة طوال فترة صباه لمجرد أن لونه أسود، وعندما وصل سن الشباب وبدأت قدراته الجسدية تظهر على السطح وصل الغزاة ديار بني عبس ووجد عنترة نفسه في الاختبار الأول فاقتحم المعركة وأبلى بلاءً حسناً فرجعت القبيلة التي أغارت عليهم تجر أذيال الخيبة لأن عنترة سوى العجايب!!

ثم انقلبت الآية بفضل شجاعة وقدرة عنترة على القتال فأصبح بنو عبس يغزون ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من مضاربهم وفي عز هذه المعارك الطاحنة مال قلب الشاب الأسمر إلى ابنة عمه عبلة بنت مالك وأعياه حبها كثيراً فيقول في إحدى قصائده:

وددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وأصبح بفضل هذا الحب واحداً من أهم شعراء تاريخ الأدب العربي وأحد كتّاب المعلقات الخالدات!!

أما لينين أول رئيس للاتحاد السوفيتي وصانع نهضته الحديثة، الرجل الذي يصفه المؤرخون بأقوى شخصية سياسية في القرن العشرين فلم يكن قوياً أبداً مع الجنس الناعم فقد وقع في حب الكثير منهن،.. وكانت آخر امرأة أحبها هذا القائد الدموي فرنسية اسمها (أنيسة)، وكانت متزوجة ودعته أن يعيش معها ومع زوجها وكانت لا تفارقه أبداً ولما ماتت سار في جنازتها يبكي كالأطفال المشردين فاستغرب الناس من ذلك المشهد.. وتدهورت صحته بعد رحيلها حتى مات فعرف الناس كيف أن الحب قضى على لينين!!

وأخيراً زعيم إيطاليا موسوليني الذي بقي على رأس السلطة عشرين عاماً وتحالف مع هتلر وكانت علاقته مع الماء ليست على ما يرام فلا يستحم إلا نادراً فيكره المرأة النظيفة ويعشق الخادمات!!

وتقول سيرة حياته إنه دخل السجن ست مرات قبل بلوغه الخامسة والعشرين من عمره كدليل واضح على شخصيته العدوانية ولم يستطع الشعب الإيطالي أن يتواءم معه لأنه عنيف وديكتاتوري، وعاش آخر عشر سنوات من عمره قصة حب عاصفة مع فتاة اسمها (كلارا بتاتشي) وأحبته هي الأخرى بجنون فانصرف عن تدبير أمور البلاد وانشغل بالحبيبة حتى أسقطوه وأعدموه في محطة بنزين وسط ميلانو، وتوسلت كلارا لهم بأن يقتلوها معه فعلقوها بساقيها بجانبه!!

وأنت يا صاحبي إذا أسقطك الحب بالضربة القاضية فلا تظن أنك ضعيف وليكن عنترة مثلاً مثلك الأعلى.

الرجل السابع

في تاريخ الإسلام الطويل الممتد لأكثر من أربعة عشر قرناً شخصيات مثيرة للجدل والغرابة والتساؤلات، ويجب أن يكون على رأس القائمة وفي مقدمتها القائد العسكري الأموي الدموي زياد بن أبيه، الذي جاء إلى هذه الدنيا بالحرام والفساد والزنا، ولهذا سمي بابن أبيه، لأن والده مجهول الهوية، وكانت أمه (سمية) جارية فارسية عند الطبيب المعروف الحارث بن كلدة الثقفي، واشتهرت كونها من أجمل الغانيات والعاهرات أيام الجاهلية، فلا تنام إلا على فراش كبار القوم وسادتهم وأكثرهم مالاً وأعلاهم نسباً.

ومنذ الصغر بدأت تظهر على زياد معالم وملامح الذكاء والفطنة وقوة الشخصية لدرجة أن عمرو بن العاص قال: "لو كان والد هذا الفتى قرشياً لساق الناس بعصاه".

وعمل كاتباً عند أبي موسى الأشعري وارتفعت أسهمه بسرعة مذهلة.. فولاه علي بن أبي طالب إمارة فارس، وحينما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان حاول استمالته إلى جانبه، لأنه يعرف قيمة عقلية قيادية مثل زياد، ورفض في أول الأمر، ثم أغراه معاوية بأن ينسبه إلى أبيه فيصبح زياد بن أبي سفيان، لكن المؤرخين لا يتعاملون كثيراً مع هذا الاسم ولا يقفون أبداً عند هذه الخطوة، ولأن العراق كان يحتاج إلى رجل قوي وصارم فلم يجد معاوية أفضل من زياد بن أبيه ليتولى شؤون المكان المضطرب..

وبالفعل منذ البداية أوقف الفوضى ونشر الأمن والأمان في اليوم الأول بين العراقيين بعد خطبته البتراء التي اعتمد فيها على اللغة المباشرة الخالية من أي مقدمات
تقليدية،واحتوى أغلب مضمونها التهديد والوعيد وجاء فيها: "وإني لأقسم بالله لآخذ من الوالي بالمولى، والقيم بالضار، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، ومن نقب نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً، فكفوا أيديكم أكفف عنكم يدي ولساني"

وأصبح زياد بن أبيه أول حاكم يفرض حظر التجول في الإسلام، وفي ذلك النهار وجدوا راعي أغنام من البدو يتجول وسط شوارع البصرة فأمسكه الحرس واقتادوه إلى زياد وسأله: ألم تسمع بحظر التجول؟

فقال ذلك الراعي الضعيف المسكين: لا والله.. وإنما ضاعت مني عنزة فخرجت أبحث وراءها.. فقال له زياد: وأنا أصدقك.. ثم التفت إلى حرسه وأمر بقطع عنقه ليكون عبرة لكل أهل العراق..

وفي كتابه الضخم "المائة الأعظم" يضع الدكتور حسين أحمد أمين زياد بن أبيه في المرتبة السابعة كواحد من أهم الإداريين والقياديين في الإسلام.. والعرب يقولون إن زياد كان واحداً من أبرز الدهاة والعباقرة قبل أن يموت بالطاعون وعمره لا يتجاوز الثالثة والخمسين.

الغرفة (437)

والده يعمل حارس للمدرسة الابتدائية في قريتهم الصغيرة،وأمه امرأة طيبة ولديه ثلاث أخوات جميعهن أصغر منه، وعندما تخرج من الثانوية العامة بتقدير ممتاز حمل أحلامه الكبيرة إلى العاصمة بحثاً عن كلية تحقق أمنية العائلة الصغيرة في هذه الدنيا، ثم تفاجأ بأن وزارة التعليم أدرجت اسمه ضمن الطلبة المبتعثين إلى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب درجاته العالية وسلوكه الحسن وأخلاقه الحميدة، ولم يكذب خبراً واتصل بالأهل ليأخذ النصيحة والمشورة، فقال له الأب: "يا ولدي أنت بعيد عنا والغربة أصبحت قدرك المحتوم، وما أظن أن هناك فرقاً بين أمريكا أو غيرها وفكر زين وتوكل على الله".

وبعد ثلاثة أسابيع وجد نفسه يركب الطائرة لأول مرة ويتجه إلى العالم الآخر ويسكن في سان فرانسيسكو وينتظم في إحدى كلياتها، ويختار قسم الإخراج لأنه كان مغرماً بالتليفزيون الذي حُرم منه طوال أيام الطفولة. فالقرية لم تعرف هذا الجهاز العجيب إلا قبل سنوات قليلة، وفي الكلية يتعرف على أول فتاة من خارج العائلة وتبدأ قصة حب تلوح في الأفق رغم العادات المتنافرة والتقاليد المتناقضة والأفكار المتباعدة، وأصبحت الفتاة الشقراء القادمة من ميامي دليله الوحيد وسنده وعزوته وملاذه، وبفضل وقوفها المستمر إلى جواره تجاوز عقبات التخصص الصعب والمعقد وتخطي حواجز اللغة واندمج بقوة مع البيئة والمجتمع، وفي نهاية السنة الدراسية الثانية كرمته الجامعة لتميزه بين الطلاب الأجانب، وأرسلته للإقامة عشرة أيام في هوليوود حتى يطلع على أحدث ما أنتجته السينما العالمية..

والتقى هناك بممثلة شابة كانت الأضواء تطاردها والأنوار تسابقها والأعين لا ترتفع عنها عقب النجاح الباهر لفيلمها الأول مع عملاق الشاشة الأمريكية.

وتواصلت لقاءاته بالنجمة الفاتنة وإذا بالحب يتسلل إلى قلبها وتتمسك به وتصارحه بسرعة مذهلة عن مشاعرها تجاهه. وكيف أنها أعجبت بتفكيره وبساطته ورؤيته للحياة.. واستغرب كيف تترك كل المعجبين وتتجاهل جميع الأثرياء ورجال الأعمال وتختار شاباً في خطواته الأولى قادماً من بلاد غريبة.. وعندما انتهت العشرة أيام حزم حقيبته ورتب أوراقه وارتدى النظارة السوداء ونزل من الغرفة (437) وطلب من موظف الاستقبال في الفندق تجهيز التاكسي لأن رحلة العودة لم يتبق على إقلاعها سوى ساعة ونصف.. ولكن المفاجأة كانت تنتظره بوجود النجمة المشهورة في البهو وليس للوداع ولكن لتحاول بقدر المستطاع منعه من السفر والبقاء معها أياماً أخرى.. ورفض تحقيق رغبتها لأن هذا الأمر سيضعه في موقف حرج أمام الجامعة.. وأخذت تبكي وتتوسل ورواد الفندق والموظفون يتابعون باستغراب..

واعذرني لن أكمل القصة.. وأنت أيضاَ لا تحاول أن تكملها لأن أجمل القصص تلك التي لم تكتمل!!.

الثالثة فاشلة

حاولت إكمال الثلاثية لكنني توقفت وفشلت.. وإذا كان عندك حل يا ليت تساعدني وسأكون لك من الشاكرين.. بحثت عن أغرب سلوكيات إنسانية لثلاثة أشخاص على مدار التاريخ واستعنت بالمراجع والموسوعات وحتى الإنترنت، لكن بلا فائدة.. فلم أصل إلا إلى فاطمة ولويس الرابع عشر..

أما فاطمة فهي بنت نصر بن العطار، وكانت امرأة زاهدة عاشت حياتها في عاصمة الدولة العباسية بغداد واشتهرت بتعبدها الدائم وأخلاقها العالية وصفاتها الحسنة.. وحينما ماتت صلى على جنازتها كبار موظفي الدولة وامتلأت ساحات المسجد بالكامل وبكاها الناس في الشوارع والأسواق وتحسروا كثيراً على وفاتها.

وما يهمنا من أمر فاطمة أنها لم تخرج طوال عمرها من بيتها إلا ثلاث مرات.. الأولى حينما تزوجت فاضطرت بالطبع للخروج من بيت أبيها إلى منزل زوجها.. والمرة الثانية خرجت قاصدة بيت الله الحرام لتقضي مناسك الحج.. أما المرة الأخيرة التي خرجت فيها فاطمة فكانت إلى المقبرة.. فرحمها الله وأسكنها فسيح جناته.. ولو عاشت فاطمة إلى وقتنا هذا لرأت كيف تخرج المرأة من بيتها ثلاث مرات.. ولكن باليوم الواحد فقط..

وهناك ملك فرنسا لويس الرابع عشر هذا الحاكم لم يستحم في حياته سوى ثلاث مرات، ولم تكن أي واحدة منهن برغبته.. فأول ترويشة أخذها بعد الولادة وقدومه إلى الدنيا، وفي المرة الثانية عندما رفضت زوجته أن تنام معه وأجبرته على الاستحمام.. أما الثالثة فبعد إجرائه عملية جراحية لإزالة الدمل الذي انتشر في جسده والسبب واضح ومعروف فأمره الطبيب بالاستحمام من اجل تنظيف مكان العملية.

هذه فاطمة وهذا لويس.. وإذا كنت تعرف ثلاثة أخرى فدلنا حتى تكتمل الصورة ويُسدل الستار..

بلا أمل

تعمل مديرة الفرع النسائي لأحد البنوك وشخصيتها قوية وتحب النظام وتكره المجاملة وتعيش حياة هادئة مع والدتها بعد أن توفي أبوها وعمرها تسع سنوات وتزوج أشقاؤها الثلاثة.. فيما هي ترفض عشرات الفرص للارتباط بابن الحلال..

وفي صباح يوم بارد تزورها امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها في المكتب وتفاجئها بطلب يدها لابنها الوحيد فداهمها إحساس غريب ربما قرأته من وجه تلك السيدة الوقورة

بأن العريس وصل.. وأن التي تجلس أمامها هي حماتها وجدة أبنائها وبالفعل ما هي إلا ثلاثة أشهر فقط حتى انتقلت إلى قائمة الزوجات، لكن المفاجأة المؤلمة كانت تنتظرها على أحر من الجمر، فحينما بدأت آثار الحمل بأول فلذات كبدها تظهر على جسدها وروحها اكتشفت أن زوجها متورط بعملية مالية وبالملايين.. وتجد نفسها مضطرة دون وعي وإدراك إلى مساعدته بطريقة مشبوهة.. وتقع هي الأخرى في نفس المشكلة وتتورط بقضية اختلاس.. ويحولها البنك إلى التحقيق وينتهي بها المطاف إلى السجن لمدة عشر سنوات.. وخلف القضبان تنجب طفلتها الصغيرة الجميلة وتسميها (أمل) وخارج السجن نجح زوجها في ترتيب أوضاعه فأخذ البنت الصغيرة التي كانت في أحضان أمها وتزوج من امرأة أخرى اشترط عليها تربية تلك الطفلة البريئة ومعاملتها كالأم الحنون، وإيهامها بأنها أمها الحقيقية، وحتى لا تعيش أمل مستقبلاً مظلماً ومجهولاً وقاسياً.. وحتى لا تصاب بأزمات نفسية كون أمها الحقيقية خريجة سجون ثم غادر المدينة وهجرها إلى الأبد إلى مدينة أخرى لا يعرفه فيها أحد.. أما أم أمل فلم يعد لها أي أمل بالدنيا.. فأصبحت شبه مجنونة وشبه إنسانة وشبه امرأة..

هذه هي القصة باختصار ولا تسألني هل هي حقيقة أم خيال؟

لكنهم بخلاء

الأسوياء يكرهون البخلاء ويحتقرونهم ويرفضون صداقتهم وعشرتهم ومجالستهم والتعامل معهم في كل شيء.. والبخل عادة ذميمة وكريهة تشوه صاحبها من رأسه حتى أخمص قدميه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يقول: "البخيل يعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء"..

وأن يصبح الإنسان العادي الذي لا يملك أي صفة تميزه عن الآخرين بخيلاً فهذه بحق مصيبة لكن كيف سيكون موقفك إذا عرفت أن في قائمة البخلاء ثلاثة من أعظم الشعراء؟!. إنها أم المصائب..

أولهم الحطيئة أهم وأشهر وأخطر فرسان الهجاء والشتائم على مدار التاريخ، فحينما هجا رجلاً يدعى الزبرقان في قصيدة لا تنسى يقول مطلعها "دع المكارم لا ترحل لبغيتها" عاقبه عمر بن الخطاب وأودعه السجن، ومن داخل ظلماته كتب أبيات يستعطف فيها الفاروق ويقول في شطر منها: "فاصفح عليك سلام الله يا عمر".. فعفى عنه بشرط ألا يهجو مسلماً مرة أخرى لكن الحطيئة تحجج بأن أولاده سيموتون من الجوع إذا توقف عن شتم عباد الله فاشترى منه عمر أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

والبخيل الثاني نزار قباني، وهذا لا يحتاج إلى تعريف ويكفي أن نذكر أن أشعاره منحت مطرباً مثل كاظم الساهر تأشيرة دخول عالم المبدعين.. فأي عمل لهذا الفنان العراقي ليس من كلمات نزار لا يختلف كثيراً عن أغاني كباريهات آخر الليل.. والناقد جهاد فاضل يروي في كتابه (الوجه الآخر) مواقف كثيرة على بخل وحرص وعشق نزار قباني للمال ويشير إلى أن نزار كان يسأل ضيوفه دائماً "بتشرب فنجان قهوة" بطريقة الذي لا يتمنى أن يسمع كلمة ياليت.. وعشرات المواقف سواء مع الفنانين أو حتى قصته مع مدير أعماله.

أما شاعرنا البخيل الثالث والأخير فللأسف إنه البحتري وأقول للأسف لسببين الأول: أنه شاعر استثنائي لدرجة أن النقاد يقولون: "المتنبي وأبوتمام حكماء والبحتري شاعر" في إشارة وشهادة واضحة على موهبته المتفردة، أما السبب الثاني: فلأن البحتري ابن عم حاتم الطائي.. أقصد من نفس القبيلة فكلاهما من بطون (طيء) وأصابع يدك مو وحدة.. حاتم أكرم الناس، والبحتري بخيل مثل نزار والحطيئة.. ويا خسارة؟!

زوجوها شايب

إذا كنت تحتقر الرجل العجوز الذي يتزوج فتاة في عمر أحفاده وتعتبره متخلفاً وغبياً وشهوانياً وجاهلاً.. فأرجوك وعشان خاطري راجع حساباتك وقلّب أوراق الماضي وانظر للمسألة من زاوية أخرى.. ثم تذكر أعظم رسام في تاريخ الإنسانية!

أجل بيكاسو ولا أحد غيره.. بلغ من العمر عتياً وظل حتى الرمق الأخير مفتوناً من رأسه إلى أخمص قدميه بالصغيرات.. ولا أحد يلومه! ولو عاش هذا الفنان الأسطوري في ماليزيا مثلا لتوقف عن العطاء وأصبح نسياً منسياً لأن محاكم وقوانين كوالالمبور تمنع أي رجل تقدم به السن من تجديد شبابه!!

لقد تزوج بيكاسو عشرات البنات الصغيرات وكان يقول لكل عروس في ليلة الزفاف عبارته المشهورة: "لا تجعليني أتذكر لحظة واحدة أننا متزوجان".. لكن جميعهن وبلا استثناء يتذكرن أنهن متزوجات ولا أحد يلومهن.. فزوجهن ليس أي رجل.. إنه بيكاسو.

كانت البداية مع فرنسية تدعى فرناند وعشقها بجنون وكان يجلس أمامها ساعات طويلة ويحكي لها عن حبه وجنونه، وظل دائماً يصفف لها شعرها ويصمم فساتينها ويوقع بإمضائه على طرف الفستان..

وحينما تشبعت فرناند بالحب أرادت أن تعيش كزوجة فاقتحمت غرفته المبعثرة وبدأت تنظيفها وترتبها، فدخل عليها بيكاسو وصرخ في وجهها فعرفت أن النهاية اقتربت.

ثم تزوج بيكاسو مارسيل إحدى صديقات فرناند وغمرها بكل أنواع الغرام وأطلق عليها اسم حواء، ورسم معها ولأجلها أهم لوحاته الخالدة لكن حياته معها لم تدم طويلا لأن الموت باغتها!!

والتقى بيكاسو بعدها براقصة روسية اسمها أولجا في أحد ملاهي باريس وأحبها بسرعة ونقلها إلى مسقط رأسه مدينة ملقة الاسبانية لتتعرف على والدته لكن الأم صارحتها وقالت: "يا بنيتي أنت جميلة وابني فوضوي.. لا تضيعي عمرك معه.. لا أضمن لك السعادة حاولي أن تهربي هو فنان مجنون لو استطاع أن يملأ فرشاته من دمك لفعل.. ربما يحبك لكنه لا يشعر أنك زوجته أبداً، فالرسم أهم منك ومني ومن الناس أجمعين.. رمت أولجا هذه النصيحة وراء ظهرها واستعدت للمغامرة وبعد سبعة عشر عاما نفد صبرها وانتهى الامر إلى الطلاق..

ويواصل بيكاسو المسيرة.. والشيب يغزو رأسه يتعرف على شابة في السابعة عشرة من عمرها.. سويسرية طويلة وشقراء واسمها ماري.. وكالمعتاد يفتح لها كل أبواب ونوافذ قلبه

الأخضر ويغار عليها ولا يريدها أن تظهر للعالم واعتبرها كنزه الدفين غير أنها اختارت الحرية وداست على ثروته وشهرته وسمعته تحت حذائها ورحلت!! وعقب ثلاثة أسابيع من هروب ماري تزوره الصحفية السويسرية "دورا" لتجري معه حوارا، لكنها لم تخرج إلا بعد سبع سنوات حيث وقعت في شباكه واستمرت مجرد عشيقة من دون زواج إلى أن ظهرت الرسامة الاسبانية "فرانسواز جيلو" التي أنجبت له طفلين وفضلت أن تقضي حياتها وتحمي أطفالها من هوس والدهم بالحب فأخذت أبناءها وغادرت..

وعندما بلغ بيكاسو الخامسة والسبعين كان على موعد مع قصة جديدة وكأنه في عداد المراهقين هذه المرة مع سمراء اسمها جاكلين وكانت مطلقة وصغيرة طبعاً.. وفي عيد ميلاده الثمانين رقص معها بيكاسو طوال الليل وقال لها: "لم أحب في حياتي أحدا كما فعلت معك".. وكان يكذب!!

واستمرت علاقته بجاكلين حتى مات وهو عجوز لا يستطيع الرسم ولا يتكلم بطلاقة متجاوزاً التسعين بقليل.

وأنت إذا سمعت "شايب" تزوج صبية فلا تتكلم عن المبادئ.. لا تتكلم عن الظلم.. تكلم فقط عن بيكاسو.

.. أنت الشمس طالعة

الصوت الجميل من نعم الله سبحانه التي لا تعد ولا تحصى.. وبلال بن رباح أصبح شيخ المؤذنين في الدنيا والآخر.. لأنه صوت صداح وعذب وشجي.. فحينما رأى الصحابي الجليل عبدالله بن زيد في المنام رجلاً يخبره بكلمات الأذان ذهب إلى رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأخبره بما شاهده على فراشه فقال صلى الله عليه وسلم: "إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتاً منك"

وهكذا ساهم الصوت وحده في منح بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاة مكانة خالدة وخاصة واستثنائية في تاريخ الإسلام وتاريخ البشرية كلها.

وعلم النفس يؤكد أن الإنسان يسمع الأصوات التي يحبها ويعشقها بوضوح أكثر من تلك التي لا يرغبها ولا يريدها.

ونصحت دراسة أمريكية أجريت قبل عشر سنوات تقريباً قادة الشركات الكبيرة والمؤسسات العملاقة بوضع فتيات ذوات أصوات جذابة في الأماكن المرتبطة بمواجهة الزبائن والجماهير، ويبدو أن هذه النصيحة عمل بها الخليجيون قبل الأمريكان!!

والشيرازي كان يقول: "إنني أؤثر سماع صوت جميل على رؤية طلعة فاتنة.. بالوجه الجميل تتحرك شهوتي.. وبالصوت الجميل تصدح روحي".

ونقاد السينما المصرية اتفقوا منذ فترة طويلة على أن السبب الأول وراء نجاح فاتن حمامة ـ رحمها الله ـ أمام كل منافساتها ليس وجهها الطفولي البريء ولا أدائها التمثيلي الاستعطافي وإنما فقط صوتها الدافئ الحنون الذي جعلها تصبح سيدة الشاشة العربية بلا منازع.

والفتاة الأمريكية المتدينة إيمي ماكفرسون أوقعت الكثير من العشاق في غرامها خلال حياتها التي امتدت أربعة وخمسين عاماً، ويقول أحدهم بعدما انفصلت عنه: "لم تكن إيمي لا جميلة ولا مثيرة أبداً.. ولكنه صوتها فقط الذي أسرني ومعي الكثيرون.. من تصل كلماتها إلى أذنه فهو ضحيتها بلاشك.. وإذا زارت مريضاً أصبحت هي نفسها المرض الجديد، وإذا هنأت عروساً بزفافها أحس العريس أنها هي التي يجب أن تكون زوجته، فصوتها دافئ هامس، وكأن كل نبراته أصابع ناعمة تلمس وتدغدغ وتثير وهي تعلم ذلك تماماً".

أما الشاعر العباسي العربيد المتمرد أعمى البصر والبصيرة بشار بن برد فهو أكثر المؤيدين والمصوتين للأصوات لأنه لم يكن يرى، وكان يعشق ويحب ويقع في غرام الجاريات

القذرات من خلال الصوت فقط.. ودخل بشار في مغامرات كثيرة كان أشهرها مع جارية تدعى أميمة التي أسرف في حبها حتى طلب منها أن تأخذ إصبعه وتداعبه في سهرة سكر ومجون وردد عليها بيت شعر يقول فيه:

أميمة قد وصفت لنا بحسن

وإنا لانراك فالمسينا

وحينما شعرت أميمة أنه يرغب بممارسة الرذيلة معها ولم تكن تشتهيه أبداً صرخت وصاحت وجمعت الناس عليه.. فضربوا بشاراً حتى كاد أن يموت.. ثم أحب فتاة أخرى تدعى عبدة وفيها قال قصيدته الشهيرة التي من ضمن أبياتها:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة

والأذن تعشق قبل العين أحياناً

فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة

أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا

فاسمعيني صوتاً مطرباً هزجا

يزيد حب محبك فيك أشجانا

وعاش بشار يعشق بالصوت فقط حتى مات متأثراً بجراحه من ضرب السياط عقاباً له بعد أن هجا الخليفة العباسي المهدي ووزيره ابن يعقوب.

وعلى أية حال يبقى الحب دائماً وحده الخصم والحكم.. فمن تكرهه لن تتقبل صوته ولن تهضمه ولا تطيقه.. حتى وإن كان عذباً كنسمة الهواء وسيقع على مسامعك مثل صوت المدافع والصراخ وجرس ساعة المنبه ونهيق الحمار.. وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير!!..

أما من تحبه روحك، ويعشقه قلبك، وتهواه نفسك فسيأتي صوته كالبلبل الصداح حتى وإن كان غريباً ونشازاً.. وصوتك يناديني وكل الأصوات صوتك يا حبيبي..!!

كانت تخونه

سأروي لك اليوم أغرب وأذكى جريمة قتل قرأتها وسمعتها في حياتي.. إنها حقيقة وليست من صناعة السينما.. ولو شاهدتها على شاشة التلفزيون ومن بطولة أعتى الممثلين لقلت إن كاتب السيناريو بالغ أكثر من اللازم في شيء لا يمكن حدوثه على أرض الواقع أبداً.. ولم يحترم عقول المشاهدين..

تحكي سجلات إحدى المحاكم الفرنسية أن مواطناً عادياً كانت زوجته تخونه مع صديقها.. فأراد الانتقام من الاثنين، فذهب إلى منزل العشيق وأفرغ خمس رصاصات في رأسه وترك المسدس وقبعته وبطاقته الشخصية أيضاً بجانب الضحية.. ثم عاد إلى البيت وأخبر الزوجة بأنه قتل حبيبها.. وطلب منها إبلاغ الشرطة وبعد نصف ساعة كان جالساً أمام وكيل النيابة يدلي بأقواله.. ولم يعترف طبعاً بالجريمة ولم يهتم إطلاقاً بالإثباتات الدامغة ضده.. بل جلس على الكرسي هادئاً ولفت نظر المحقق إلى أن المرء لا يقتل أحداً ويترك مسدسه وقبعته وبطاقته الشخصية في موقع الجريمة.. ولا يعقل أن يدبر جريمته في الخفاء ثم يضع عنوانه في متناول يد المباحث الجنائية وأشار إلى أن أي إنسان في العالم كله من الممكن أن يكون الجاني إلا هو.

بعد هذا الفصل استراح في مقعده وقال لوكيل النيابة إن زوجته لم تكن على وفاق تام معه أو مع عشيقها، وإنه من المعقول أن يتصور المرء أن تلك السيدة ارتكبت جريمة القتل وتركت أشياء زوجها في مكان الحادث حتى تضرب عصفورين كريهين بحجر واحد.. وبعد ثلاثة أشهر من التحقيقات أثبتت المحكمة جريمة القتل على الزوجة البريئة..

لم يتبادر إلى ذهن أحد أن المجرم يقتل غريمه ثم يترك عند جثته بطاقته الشخصية، ومن المستحيل أن يخلف وراءه كل تلك الأدلة القاطعة.. وكان من الواضح أمام القضاة أن الأمر من البداية حتى النهاية دسيسة ومؤامرة مفضوحة ضد الزوج الطيب القلب.. وبعد عشرين عاماً اعترف القاتل بلعبته البسيطة التي ضحك بها على العدالة وانتقم من ذلك الرجل الذي خطف قلب امرأته.. وترك المحكمة تنتقم له من زوجته.. وخرج من المذبحة سليماً معافى ودون أن يصاب بأي أذى.

كان صرحاً

في قارة إفريقيا يموت الناس من الجوع.. وفي أماكن كثيرة على خريطة الكرة الأرضية كلها أناس يموتون من السمنة والتضخم والأمراض الباطنية.. فالمعدة هي بيت الداء والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.. ولا يقصد خير البشرية أننا إذا جلسنا على مائدة الطعام تركناها خالية على عروشها.. أبداً وإنما يذكر بالتقسيمة العادلة فثلث للمأكل وثلث للشراب والثلث الأخيرة للأنفاس.

وظل الرجال والنساء على حد سواء يستهلكون أوقاتاً كثيرة من أجل الوصول إلى أفضل وسائل الريجيم ولم يهتدوا حتى الآن إلى طريقة يتفق عليها الجميع، لكنني سأروي ما فعله أحد الأصدقاء الأعزاء وأنت وضميرك.. فإذا كنت سميناً بما فيه الكفاية وتحلم بالتخلص من بعض شحمك ولحمك فجربها ولن تخسر شيئاً.. فهذه ليست نصيحة ولا دعاية وإنما تجربة رأيتها بأم عيني ووصفتها سهلة وتطبيقها أسهل.. ولن أقول لك هات "ورقة وقلم" واكتب قائمة الممنوعات والمحظورات في الأسبوع الأول والمسموحات في اليوم الأخير.. المسألة من أولها إلى آخرها تتلخص في كلمتين (لا تخلط).. هل فهمتم؟!

سأشرحها وأوضح أكثر وأرجو أن تصحصح معايا!!

كل في إفطارك ما تشتيه نفسك لكن لا تخلط البيض مثلاً مع الخبز.. كل الخبز لوحده في وجبة الإفطار وبالكمية التي تريد ولا تخلط معه أي شيء أو كل البيض وبالكمية التي تريد أيضاً ولكن بدون أي شيء معه.. وفي الغداء اهجم على الكبسة وافتح كل الطرق السريعة المؤدية إلى أمعائك واملأها بالأرز ولكن وحده دون الاستعانة بدجاج أو لحم أو غيره.. وكرر المشهد في العشاء.. تناول نوعاً واحداً في كل وجبة دون دخول أصناف أخرى وسترى بعد فترة بسيطة لا تزيد على الأربعة عشر يوماً أنك بدأت تنقص بالتدريج وأزيدك من الشعر بيتاً وبدون ممارسة أي نوع من الرياضة أيضاً.. إنها طريقة عجيبة وغريبة ولو لم أر فعلها بأم عيني لما رويتها لأحد فقد كان صاحبي صرحاً من لحوم وشحوم فهوى!!

فإذا كنت تريد أن تصبح أيها الرجل مثل لاعبي الجمباز.. وإذا كنت أيتها المرأة تحلمين برشاقة عارضة الأزياء السمراء الامريكية (ناعومي كامبل) فافعلوا مثل صديقي وأنا المسؤول!!

ثم مليونيراً

ولد الطفل الصغير وبعد سنة ونصف فقط ماتت أمه.. وقبل أن يخطو خطواته الأولى وقبل بلوغه الرابعة من عمره توفي أبوه الذي كان يعمل بنّاء حينما سقط أثناء تشييد أحد المراكز التجارية.

فأصبح يتيماً من كل الجهات وبدأت زوايا التشرد والضياع تجهز له مكاناً لائقاً ودائماً بين زبائنها اللئام!

وغادر الصبي رومان إبراموفيتش عاصمة بلاده موسكو إلى منطقة كومي الشمالية ليعيش مع جدته.. وتمر الأيام بطيئة وحزينة كلها مرارة وألم على شاب يواجه الحياة بلا والدين.. ويلتحق بالمعهد الصناعي لكنه لم يستطع إكمال مشواره التعليمي بسبب إجباره على أداء الخدمة العسكرية حسب القانون الروسي.. ثم يبتسم له الحظ وتلملم السحابة السوداء أمتعتها وتشرق الشمس وتتحول لياليه المعتمة إلى ضياء بلا حدود.. حين تعرف عن طريق الصدفة على رجل الأعمال بوريس بيرزوفيسكي الذي كان يستولي على الصناعة النفطية في عهد الرئيس السابق يلتسن.. ونجح إبراموفيتش في السيطرة على قلب وثقة صديقه الجديد، وتقدم خطوات كبيرة أهلته ليكون رقماً صعباً في المشاريع الضخمة ثم يضطر بوريس إلى مغادرة روسيا وينتقل للعيش لاجئاً سياسياً في لندن عقب وصول بوتين إلى مقاليد السلطة، وكان إبراموفيتش قبلها استقل بنفسه بمساعدة مباشرة من بوريس وامتلك 80% من أسهم (سنفط)، خامس شركات النفط ونصف شركة روسال المتخصصة في إنتاج الألمنيوم.. وربع شركة الخطوط الجوية الروسية.. ثم يسجل إبراموفيتش نجاحاً سياسياً عاصفاً وكسب 92% من أصوات الناخبين في إقليم تشوكوتكا.. وسارع إلى تحسين ظروف السكان المعيشية حتى أخذت الأعين والتساؤلات تحوم حول دخوله في صفقات مشبوهة وتورطه في قضايا ضرائب متأخرة مما دفعه وبسرعة إلى نقل استثماراته إلى أماكن أكثر استقراراً ليشتري نادي تشلسي الإنجليزي ويسجل معه قصة نجاح أصبحت نموذجاً واقعياً للمعنى الحقيقي في عالم احتراف كرة القدم، واستطاع الشاب الروسي الطموح إعادة أمجاد الفريق الأزرق وتوج ببطولة الدوري بعد غياب دام خمسين عاماً من الإحباط والتراجع..

وتقدر ثروة إبراموفيتش حينما بلغ الثامنة والثلاثين عاماً أكثر من ثلاثة عشر مليار دولار.. ويمتلك قصوراً وطائرات خاصة ويخوتاً فاخرة ومنزله يساوي واحداً وخمسين مليون دولار ويكسب حسب إحصائيات صحيفة (ذي صنداي تايمز) مائة ألف دولار كل ستين دقيقة..!

وسبحان مقسم الأرزاق ومبدل الأحوال..

حتى لو ماتت سوسي

نسمع دائماً أن الإبداع يولد من رحم المعاناة.. هكذا يردد الفقراء والبسطاء والمعدومون ليتباهوا بأنفسهم أمام ذوي الأملاك والعقارات والقصور وأهل الثروات وأصحاب الأرصدة والأموال والحسابات المحترمة!

لكن المهم.. هل تستمر الموهبة علي قيد الحياة فيما المأساة تحاصرها من كل مكان؟!

عشرات الكتاب والروائيين والشعراء تهزمهم الظروف وتنتصر عليهم نوائب الدهر وتسقطهم الآلام والأحزان والمواجع بالضربة القاضية ولا يلومون إلا الزمن الذي أنصف وجامل من لا يستحق وتركهم ينامون في العراء ويأكلون التراب!

لكن هناك شخص واحد فقط كانت كل مصيبة تزيده عطاء، وكل كارثة تمنحه التعايش مع الناس، وكل مرارة تفتح له أبواباً أحلى للحياة.. هذا هو أديب أمريكا العظيم مارك توين، الذي ما أن بلغ الثانية عشرة من عمره إلا وعيناه البريئتان تغرقان بالدموع حسرة على موت أخته وأخيه.. وحينما أصبح عمره ثلاثة وعشرين عاماً انتقل شقيقه إلى الرفيق الأعلى في حادث انفجار باخرة كانت تعوم فوق مياه نهر المسيسبي.. وبعد الحادثة المفجعة يغزو الشيب شعره الكثيف ويعيش في عزلة ويتشاءم من كل شيء.. وعندما بلغ الثلاثين اتخذ قرار الانتحار ووجه فوهة المسدس آخر الليل نحو رأسه.. لولا أنه لم يجد الشجاعة الكافية لتنفيذ حكم الإعدام كما يروي فيما بعد..

ثم يبدأ رحلته الطويلة مع الرواية والتأليف ويهدي المكتبة الأمريكية أعمالاً خالدة لا تنسى.. ويستعيد قواه النفسية ويتزوج وينجب ثلاثة أطفال،مات الأول عقب ولادته مباشرة.. وأصيب الثاني بالتهاب رئوي حاد لأن والده توين أهمل تغطيته بلحاف دافئ في ليلة باردة خلال رحلة سفر برية داخل الولايات المتحدة.. أما ابنه الثالث فسقط من فوق جبل وعاش بين الحياة والموت فترة مديدة.. وحينما أقدم القراء على شراء مؤلفاته وأصبح مشهوراً ومعروفاً قام بجولة لإلقاء المحاضرات بدعوة من بعض الجامعات الأمريكية.. وبعد عودته إلى منزله يتفاجأ بوفاة ابنته الدلوعة المدللة (سوسي) والتي كان يعشقها بجنون.

أما عندما نال قمة المجد وظن أن الأيام السوداء ولت بلا رجعة فكان على موعد جديد مع البكاء والنحيب حيث أمضت ابنته "جين" يوماً كاملاً والسعادة تغمرها بالإعداد لحفل الكريسماس وجهزت الهدايا وكتبت أسماء أصحابها عليها وطبعت على جبين والدها القبلة الأخيرة قبل الذهاب إلى فراشها.. ولم يكن توين يدرك أنها تودعه وأن ضربة مؤلمة كانت تنتظره على أحر من الجمر في الصباح الباكر!

نهض توين من نومه مفزوعاَ وهو يتلقى نبأ وفاة تلك الصبية اليافعة التي داهمتها نوبة صرع وهي تستحم وقضت عليها.. وبعد أقل من سنة يلحق توين بأبنائه وبناته ويطوي صفحة واحد من أهم أدباء أمريكا التاريخيين.

والغريب والعجيب في توين أنه لم يكن كاتباً يعكس عذاباته ويتاجر بجراحه وإنما كان قلماً ساخراً.. كانت يده لا تضع الحبر على الورق إلا لزرع الابتسامات وكأنه أسعد خلق الله.. وأجمل ما قاله ذلك العبقري المثير: "الإنسان حيوان لكنه ليس وحشاً.. لأنه لا يصل للمستوى الأخلاقي للوحوش.. فالوحش يقتل بدافع الجوع أما الإنسان فيقتل بدافع الحقد".

إنها رحلة إنسان دخل في معركة مع نفسه أولاً.. ثم مع من حوله.. ثم مع قسوة الحياة.. وأظنه انتصر.

لا يعرفون الحقيقة يا جاكي

لو قلت لك إن امرأة تزوجت رئيس أعظم دولة في العالم وعاشت معه عشر سنوات داخل البيت الأبيض.. وعندما مات تزوجت مرة ثانية من أغنى رجال الدنيا.. بالتأكيد ستظن أنها كانت أسعد النساء على وجه الأرض.. لكن الحقيقة لها رأي آخر.

كانت حياتها رحلة طويلة من العذاب والحرمان والشك والغيرة والخيانة والاكتئاب والوحدة والخداع والكذب.. كانت شبه محطمة.. كانت حياتها مدرسة لمن أراد أن يتعلم كيف يفقد الإنسان الراحة ويخسر الطمأنينة في حضرة السلطة والمال والأضواء والشهرة.. حياتها كلها ظاهرها الرحمة وباطنها الموت والفزع والقهر والرعب وكراهية الحياة.

هذه هي الفرنسية جاكلين بوفييه التي انطلقت في مشوارها العملي كمصورة صحفية قبل أن يلتقي بها جون كنيدي ويعشقها ويتزوجها.. وبعد سنوات قليلة يصبح كنيدي رئيساً للولايات المتحدة وفي عز انشغاله بإدارة الدولة ومواجهة التغيرات السياسية العاصفة خلال تلك الفترة يقع كنيدي في غرام الممثلة مارلين مونرو أجمل وأحلى أمريكية طوال التاريخ.. وتشتعل الحرب الناعمة بين كنيدي وجاكلين.. وتتحدث الصحافة وكل وسائل الإعلام عن لقاءات سرية مستمرة بين الرئيس الأمريكي وعشيقته الفاتنة.. كيف كان يلتقيها في البيت الأبيض وعلى فراش جاكلين عندما تكون خارج المنزل..

وتمضي أيام "جاكي" كما كان يدلعها الأمريكان محاصرة بالهموم ونظرات الشفقة لما يفعله بها زوجها.. ثم تموت مارلين في ظروف غامضة وتصدر عدة كتب تشير بعض رواياتها إلى أن جاكي لها دور أساسي في هذه الجريمة.

وبعد عام تقريباً قتل كنيدي نفسه ولحق بحبيبة القلب حينما كان يمشي في موكب رئاسي وسط مدينة دالاس وتتناثر دماؤه على قميص جاكي التي كانت بجواره.. ويشهد العالم كله ذلك المنظر المروع.. ولا أحد حتى اليوم يعرف القناص الذي أطلق الرصاصة.. ولو لم تكن كاميرات التليفزيون حاضرة لربما اتهموا جاكي من جديد بجريمة هي بريئة منها براءة الذئب من دم يوسف.. ولربما وصل الخيال الأمريكي إلى القول إن الفرنسية ذات الملامح البريئة تخلصت أولاً من مارلين ثم أكملت المخطط وقتلت كنيدي انتقاماً لشموخها ورداً على خيانتها.

وحينما كانت جاكلين تمشي متعبة وحزينة في جنازة كنيدي قال الجنرال الفرنسي ديغول كلمته المشهورة: "لقد خسرت أمريكا كنيدي وخسرت فرنسا جاكي"، في إشارة إلى مساندتها الدائمة ومواقفها المشرفة مع بلدها الأصلي في كل القضايا.. وبعد فترة بسيطة يتقدم الملياردير اليوناني أوناسيس لخطبتها ولم يكن يحبها.. لكنه أراد فقط تجاوز أزمة

فقدان ابنه الوحيد ألكسندر في حادث طائرة ووافقت جاكي بسرعة لأنها شعرت أن هذه الخطوة ربما تعينها هي الأخرى على تضميد جراحها، ووضعت أمام الثري الباذخ شروطاً تعجيزية وغريبة سجلتها في عقد الزواج داخل المحكمة ومنها ألا تنجب له طفلاً.. رغم أنه كان يتمنى وريثاً لأملاكه التي تحتاج إلى عامين كاملين لإحصائها ولا يضمهما سرير واحد، وأن تنال تعويضات بالملايين إذا تم الطلاق.. فيما عليها أن تقضي معه شهرين طوال إجازة الصيف من كل عام ليكتشف أوناسيس عقب أشهر قليلة أنه ارتكب غلطة العمر فكره جاكلين وأساء معاملتها.. لدرجة أن أحد المصورين استطاع التقاط فيلم وصورها وهي عارية تماماً على البحر وحاول مساومة أوناسيس مقابل شراء الفيلم والصور، لكن اليوناني قال له: "اذهب إلى الجحيم.. وافعل ما تشاء".. وبالفعل فعلها المصور وباع الصور للصحافة الأمريكية التي نشرتها وحولت ما تبقى من حياة جاكي إلى جحيم.

وداهم الموت الزوج الثاني ورجعت جاكلين إلى أمريكا مكسورة الخاطر تجر وراءها ذكريات مؤلمة، فيتجاهلها الناس كزوجة رئيس سابق، وتضطر للعمل مجرد موظفة في إحدى دور النشر وينقض عليها المرض اللعين ويكتب نهايتها.

إنها حكاية مريرة بالتأكيد.. ولم تشعر بها إلا جاكي نفسها.. لأنه لا يشعر بمرارة الفشل إلا من تجرعه كما يقول نابليون!!..

والآن هذه جاكي عاشت وعذبت وماتت.. والناس تظن أنها عاشت واستمتعت.. وبس.

لا تقول الراعي

ليس صحيحاً أن لكل سؤال إجابة.. هناك أسئلة مهمة وتاريخية ومحورية وجوهرية وواضحة ليس لها إجابة واحدة.. لها إجابتان.. فمثلاً لو طرحت سؤالاً عن أول رجل في الدنيا يصل إلى قمة إفرست وهي أعلى نقطة على وجه الأرض، فتشير الإجابة إلى النيوزيلاندي "أدموند هيلاري" الذي فعلها عام 1953 ودخل التاريخ وأصبح من المشاهير واقتحم موسوعة جينيس.. هذه الإجابة ستسمعها من كل صديق قد تحتاج للاستعانة بمعلوماته، إلى إلا إذا كان صديقك هذا من نيبال، فإنك ستتلقى إجابة مختلفة وغريبة لأن النيباليين لا يعترفون أبداً بهيلاري وحصوله على لقب أو رجل يصل إلى إيفرست ويصرون أن راعي الأغنام النيبالي "تاينزج نورجاي" الأحق بالأضواء والسمعة والتكريم والإشادة والشهرة، لأنه أول من وصل بالفعل إلى قمة إفرست كونه هو الذي ساعد هيلاري وهداه إلى الطريق الصحيح وحمل طعامه وشرابه وملابسه وكان الرجلان مربوطين بحبل حتى إذا سقط أحدهم ينقذه الآخر واعترفت جريدة نيويورك تايمز الأمريكية بهذه الحقيقة وهي تروي قصة الوصول إلى افرست وقالت: "الراعي النيبالي نورجاي وصل القمة مرتين في المرة الأولى كان بمفرده ثم نزل إلى الأسفل وقاد هيلاري الذي غلبه التعب والإجهاد إلى القمة مرة أخرى". واحتفلت نيبال بمواطنها الفقير المعدوم ومنحه ملك البلاد ميدالية خاصة توثق ذلك الإنجاز التاريخي الذي اختلسه التاريخ ورماه في أحضان نيوزيلندا.. وأنت إذا سألك أحد من هو أول الصاعدين إلى قمة افرست فلا تقول الراعي.. لأن ما راح يصدقك إلا عشرون مليون نيبالي.

بسرعة البرق

تعرف وأعرف ويعرف الناس أجمعين أن التاريخ صديق حميم للعباقرة والمميزين.. لكن الذي لا نصدقه أحياناً أن الزمن يخلد حتى التافهين!

وإذا كنت تؤمن بأن صعود السلم يحتاج إلى خطوات محسوبة وأن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة.. إذا كنت من المؤيدين لهذه الشعارات الزائفة فتعال واسمع حكاية قائد البحرية الإنجليزية (جون مونتاجو ساندوتش) الذي تقلد العديد من المناصب السياسية المهمة في بلاده ما بين عقدي 1750 ـ 1770 ولم يستطع على الرغم من حساسية الموقع وأهمية المركز أن يضيف أشياءً تستحق الذكر للإمبراطورية البريطانية لولا أن اسمه يتردد منذ أكثر من (200) عام وحتى الآن في كل أنحاء الدنيا.

والصغار والكبار يعرفونه والأصحاء والمرضى يحفظونه، فقد كان ساندوتش مدمن لعب القمار ويقضي معظم نهاره وليله على الطاولة لدرجة أهمل معها عائلته وأولاده ورسخ جهده وماله وحياته للكوتشينة، وكما يقال إن الحاجة أم الاختراع فقد أراد ساندوتش أن يستمر أطول وقت ممكن في مجالس اللعب فتوصل للفكرة الجهنمية حينما طلب من النادل أن يأتيه بشريحتي خبز بينهما قطعة لحم وأعجب الشلة ورفاق الجلسة بهذه الطريقة العجيبة فبدؤوا يختارونها دائما ويسمون الوجبة بساندوتش لتنتشر وبسرعة البرق بين العالم وليقتحم الساندوتش كل البيوت والمرافق والمطاعم والاستراحات والمطارات وتصبح فيما بعد الوجبة المفضلة لطلاب المدارس، ثم يتطور الأمر ويفرض إيقاع الحياة السريع التعامل مع هذا النوع من الأطعمة..

ولم تبخس أي دولة حقوق الطبع وتركت اسم هذا القمرجي الأوروبي حاضراً ومتداولاً بين الناس، وقد حاولت السيدة اللغة العربية أن تزيح ساندوتش من مكانه من خلال وصف هذه الوجبة (بشاطر ومشطور وبينهما طازج) لولا أن البديل ليس اسماً وإنما قصة قصيرة فظل حبيس المعاجم وسيظل لأن البقاء بعض الأحيان لأمثال ساندوتش!!

لكنهم لا يعرفون شيئاً

العسكرية تصنع الرجال وتعلمهم القوة والقسوة والصبر والتحدي والخشونة والقيادة والصرامة والوضوح.. وتعلمهم أكثر أن الحب لا يصلح إلا للمراهقين والفنانين والشعراء والرسامين والبقالين وأصحاب القلوب الضعيفة والمشاعر الرقيقة والعواطف الناعمة التي تعصف بها الريح في كل اتجاه!

ومهما بلغ مستوى وحجم النجاح الذي يحققه العسكريون في حياتهم العملية، إلا أنهم يسقطون أمام كل اختبارات الهوى والجمال والغرام.. وليس هناك دليل أكثر من الأمريكي ماك آرثر أهم وأشهر وأبرز وألمع قادة الحرب في العصر الحديث.. فقد حصل هذا الرجل الأسطوري على نياشين وأوسمة وشهادات تقدير وتكريم كثيرة.. لكنه لم يحصل على قلب واحد يعشقه.. وانتصر في أقوى وأشرس المعارك ولم يكسب امرأة واحدة تحبه.. وأخاف خصومه ومنافسيه وأعداءه ولم يجد روحاً ونفساً واحدة تخاف عليه!!..

وعلى يديه انتهت الحرب العالمية الثانية حينما نجح ماك آرثر بإخضاع اليابان وأجبرها على الاستسلام بعد إلقائه القنبلة الذرية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي ومسحهما من الخارطة والوجود وقتل ما يقارب 140 ألفاً وارتفعت أسهم آرثر في بلاده والعالم كله ونال أقصى ما يتمناه أي عسكري على وجه الأرض.. هذا ماك آرثر القائد والمحارب.. نجاح بلا حدود!!.. لكن ماذا عن ماك آرثر العاشق الولهان.. إخفاق وإذلال وصدود!

دخل آرثر قصة حب مع لويزة ولم تكن جميلة ولا فاتنة وإنما أرادها وهذا هو المهم.. لكن أمه غضبت عليه وهددت بمقاطعته إلى الأبد إذا لم يتراجع ويترك لويزه لأنها كانت غنية وتسرف في حضور الحفلات وترقص وتشرب حتى تفقد الوعي تماماً.. وكانت أمه تريده أن يتزوج امرأة محتشمة وحلوة وعاقلة وتتناسب مع مقامه وهيبته ومركزه.. تجاهل آرثر مطالبها وأخذ لويزه ورحل إلى الفلبين في مهمة عسكرية وعاش معها فترة بسيطة لم يشعر معها بالحب لأنها في الأساس لم تكن تحبه.. فطلبت الطلاق وعادت إلى أمريكا.. ثم حاول آرثر الإضراب عن النساء حتى التقى مع الأسكتلندية إيزابيلا المولودة من أم صينية في مانيلا.. تزوجها ونقلها إلى واشنطن، وهناك أسكنها أو سجنها داخل جناح فاخر في أحد الفنادق الكبيرة.. وحقق لها رغباتها وأغرقها بالهدايا والأموال، وفرض عليها ألا تغادر الفندق.. لكنها كانت تخونه وتخرج وتسهر مع الرجال وتتنقل من حضن إلى آخر.. وتلعب القمار، وأصيبت بالتهاب رئوي وأخبرته بأن مرضها ربما يكون بسبب البرد.. فكتب لها رسالة يقول فيها: "هذه أول مرة أعرف أنه من الممكن أن يصاب الإنسان بالتهاب رئوي في السرير.. احرصي على قفل النوافذ والباب.. فقد قرأت أن الجو شديد البرودة هذه الأيام".

وحينما عاد آرثر اكتشف ألاعيبها وخداعها فطردها على الفور.. وذهبت إيزابيلا إلى الصحافة ونشرت أسرارها وحكايتها معه.. وكانت تقول: "إنه قائد عظيم وعبيط أيضاً.. شيء واحد كان يحبه جداً وهو أن أستمع إليه وأنا جالسة عند قدميه يروي معاركه العسكرية وكيف فكر ودبر وانتصر.. وأحياناً يذهب أبعد من ذلك ويأتي بالخرائط.. كنت أحب هذا الغرور وتلك العظمة.. كنت أحب قوته وصوته وحركاته.. كنت أحب فيه القائد فقط.. ولم أكن أفهم شيئاً واحداً مما يقول"!.

إن ماك آرثر لم يكن سوى ترجمة واقعية للعسكرية وعلاقتها بالحب.. وسلطان الغرام.. وترجمة حرفية لكلمات كان يقولها قائد عسكري آخر هو الفرنسي نابليون الذي ظل يردد دائماً: "في الحرب أعرف بالضبط ما الذي سوف أفعله.. في الحب لا أعرف شيئاً".. وبالفعل لا نابليون بكلامه.. ولا ماك آرثر بأفعاله، كانا يعرفان شيئاً!!.

إنهما لا يجتمعان

يعتقد كثيرون ومعهم حق إلى حد بعيد أن الموهبة والثراء لا يجتمعان.. مثل الملح والنار ولو أتعبت نفسك قليلاً وفتشت داخل أعماق السيرة الذاتية لكل المبدعين في مجالات الحياة المختلفة لوجدتهم معدمين وفقراء وأحياناً متسولين!

شارلي شابلن الفنان العالمي التاريخي وصاحب مدرسة الكوميديا الصامتة، عاش البؤس بكل أنواعه وعرف معنى الحرمان والتشرد.. وعندما جنت والدته متأثرة بسوء التغذية دخل ملجأ خاصاً بأبناء الشوارع.. ثم هرب بعد أشهر قليلة وصار يأكل ويشرب من صناديق القمامة.. ويعمل بائعاً متجولاً للصحف على الطرقات تحت لهيب الشمس الحارقة ووسط انخفاض درجات حرارة عاصمة الضباب لندن في فصل الشتاء.. وعندما لم يجد من وراء بيع الجرائد سوى الاهانات والبهدلة عمل صبياً يقطع الأخشاب.. ولم يساعده جسمه النحيل بالاستمرار في هذه الوظيفة.. فقرر أن يعرض نفسه على مسؤولي المسارح.. ليس فراسة في موهبة خفية مدفونة وإنما فقط بحثاً عن لقمة عيش هنية.. وبالفعل ابتسم له الحظ ووجد نفسه على خشبة المسرح مقابل ثلاثة جنيهات أسبوعياً، واعتبر هذا المبلغ الضئيل الذي لا يكفي لساندوتش ثروة كبيرة..

ثم يؤدي بعد سنوات دوراً أكبر وهو في السادسة عشرة من عمره أمام ممثل كبير.. وكانت المسرحية جافة لكن شاري شابلن أثار ضجة وسط الحضور وبين جنبات الصالة بحركات على السليقة وابتسامات بالفطرة، ويبدأ المشوار فيطير شابلن مع فرقة مسرحية إلى هوليوود ويؤدي هناك لأول مرة دور شاب مخمور فيراه منتج سينمائي أمريكي ويتبناه.. وبعد ثلاث سنوات فقط يوقع عقداً مع شركة فنية بأكثر من مليون ومئتي ألف دولار ليعترف العالم كله بأن هذا المهرج العظيم عبقري الكوميديا بلا منازع.

وما فعله الإنجليزي شابلن تكرر مع العراقي كاظم الساهر.. الذي وجد نفسه منذ نعومة أظافره وسط محل نجارة يعمل بجانب والده حتى يتمكن من توفير المصروف اليومي لعائلة كبيرة.. ثم انتقل الساهر ليشتغل ببيع الأيسكريم في أحد شوارع بغداد.. ورمته مرارة الظروف القاسية والحياة الصعبة إلى مصنع ملابس يشتغل على ماكينة نسيج، ولم ينته المطاف هنا بل اكتمل المشهد وهو يذهب كل صباح إلى محل مجوهرات لا لبيع الألماس والذهب إنما ليمسح البلاط وينظف الأرضيات ويلمع الزجاج.. واكتشف كاظم موهبته أثناء الحرب العراقية الإيرانية عندما دخل بالتجنيد الإجباري.. ومن حسن حظه أنه اختير ضمن فرقة الجيش الموسيقية.. التقى فيها بالكثير من أهل الطرب في بلاد الرافدين.. وعندما أنهى الخدمة العسكرية اتجه فوراً بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره إلى محاولة احتراف الفن.. وبالفعل نجح في أغنية (لدغة الحية) التي كانت المفتاح الأول لأبواب المال والشهرة والنجومية، حتى أصبح كاظم الساهر اسماً صاخباً في عالم الفن قبل رحيل نزار قباني..

أما أسطورة الكرة العالمية البرازيلي الأسمر بيليه.. فقد كان قبل دخوله الملاعب مجرد ماسح أحذية وأنتم تعرفون ماذا حدث بعد ذلك..!

وغير شابلن وكاظم والجوهرة السمراء.. آلاف بصموا بالعشرة أن الإبداع لا يولد إلا من رحم المعاناة.

داخل القلب وداخل المطبخ

قبل أكثر من ثلاثين عاماً تقريباً تزوج الممثل الكويتي الراحل علي المفيدي خادمة مصرية تدعى "نبوية".. وهذا بالطبع ليس على أرض الواقع وإنما فقط في أحداث أشهر مسلسل كوميدي عرفه الخليجيون منذ تلك السنين وحتى اليوم، فحينما ذهب "أبوصالح" وزوج ابنته "سعد" إلى القاهرة في رحلة نقاهة ضمن برنامج العلاج الذي قرره الأطباء لإخراج "حسين" من حالة الاكتئاب، وقع خالهم "قحطه" في غرام شغالة الشقة وأحبها بجنون لدرجة أنه يغسل الصحون نيابة عنها داخل المطبخ قبل أن يعقد قرانه عليها.

ونفس الدور لعبه فريد شوقي ومحمد رضا وصلاح السعدني ومحمود ياسين وياسر العظمة وعشرات الممثلين العرب الذين وجدوا في أحضان الخادمات الجميلات الراحة والأمان والحب وأشياء أخرى.. وحاولوا من خلال الشاشة إقناع المشاهدين بأن الفتاة المغلوب على أمرها التي أجبرتها الظروف الصعبة والأيام السوداء بالعمل ساعات طويلة في بيوت الناس ربما تملك جوانب خفية وإنسانية وروحية تفتقدها سيدات ذات حسب ومال وجاه!!

وقبل سنوات تناقل السعوديون قصة ملياردير تزوج خادمته الفلبينية في أيام الأخيرة بعد أن ظلت ترعى شؤونه وتسهر على راحته سبعة عشر عاماً متواصلة.. وسعى أبناؤه جاهدين إخفاء الخبر وعدم خروجه إلى الشارع لكنهم فشلوا وأصبحت سيرتهم على كل لسان رغم أن أباهم لم يرتكب أي جريمة أو معصية أو مخالفة يعاقبه عليها الشرع والقانون.. لقد تزوج على سنة الله ورسوله فأين المشكلة؟! لقد تزوج على طريقة "تولستوي" فأين العار؟!.. "وتولستوي" أعظم كاتب عرفته روسيا طوال تاريخها حيث قدم للعالم روايته الأسطورية "الحرب والسلام" التي جسد فيها (600) شخصية كل واحدة مستقلة بذاتها.. ورسخ خلالها معنى البساطة والخير، وكيف ترتبط الروح الإنسانية بالحقيقة.. وعاش "تولستوي" يقطع الأخشاب ويصنع الأحذية في الصباح ويرتمي وسط الأوراق إذا حل الظلام ليكتب أجمل القصص والحكايات.. وتعلم اللغة العربية وقرأ كتاب الله العزيز.. وقبل موته بعام واحد ألف كتاباً عن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بعنوان "حكم النبي محمد"، وكشف مدى إعجابه بشخصيته وتعامله مع أصحابه وإدارته للدولة الإسلامية.

وكان "تولستوي" رغم تواضعه جافاً لا يحب الضحك ويكره المرأة كثيراً، وكان يقول: "يجب أن تكون على مقربة من النساء ترى وتسمع وتفكر وتتعلم ولكن أبعد عنهن.. أبعد عن هذا الشر قدر استطاعتك.. خذها مني نصيحة مخلصة"!!

وما يهمنا من حياة "تولستوي" الصاخبة والمثيرة هو هواه الغريب وعشقه المستمر للخادمات والفلاحات والشغالات.. تخيل أن هذا الكاتب العظيم، صاحب اللحية الكثيفة والوجه المتجهم عرف طعم الحب مع أربع خادمات وأنجب ولداً من الأخيرة.. ويعترف أنه جلس يبكي أمام سرير أول خادمة عرفها، ويعترف أيضاً بأنه لم ينس ذلك اليوم طوال حياته.

والبيوت في العالم كله "مليانه" بعاملات فقيرات وضعيفات يقودهن الحظ العاثر من أقصى الدنيا بحثاً عن لقمة العيش الشريفة ثم يجدن أمامهن من يبحث عن الحب.. وللناس فيما يعشقون مذاهب.. مثل "قحطه" والملياردير السعودي وأيضاً "تولستوي".

سيموت الطفل

أكثر العبارات شيوعاً في المسلسلات العربية والمصرية هي (ما فيش كذب أبيض وكذب أسود.. الكذب كذب)! لكن هل صحيح أن إحدى آيات النفاق والشقاق بلا لون؟! أم هو مثل قوس قزح؟!

وهناك قصة قديمة من الأدب الصيني تحكي أن أسرة رزقت بمولود ذكر، فتوافد الأقارب والجيران والأصدقاء على العائلة لتقديم التهاني والتبريكات، وجاء الأول ونظر إلى الضيف الجديد، وقال: "إنه سيصبح وزيراً وصاحب أهم القرارات في تاريخ أكثر دول العالم سكاناً" فقدمت له العائلة الشراب والطعام وتبادلت معه الضحكات وودعته بأكثر ما جاء به من حفاوة واستقبال.

وجاء الثاني وبدأ ينظر إلى الطفل الرضيع وقال:" إن هذا الولد سيصبح ثرياً وستصل تجارته إلى أطراف الدنيا وتعبر شهرته المالية القارات وتعبر ناقلاته وبواخره البحار والمحيطات".. ولم يكن جزاء هذا الرجل أقل من السابق، بل ومنحته هدية وأكرمته آخر كرم.

أما الثالث فأطال النظر إلى الصبي وأخذ يرمقه يمينا وشمالاً ويتفحص كل أجزاء جسده ويلمح عينيه الخائفتين من الضوء ثم أطلق الرصاصة وقال ودون مقدمات ولا مجاملات: "هذا الولد سيموت" فلم يشعر بنفسه إلا مطروداً ومهانا والشتائم تتقاذفه من كل حدب وصوب.. رغم أنه هو الوحيد الذي قال الحقيقة فما أدرى الأول والثاني بأن المولود سيكون وزيراً وتاجراً فربما يصبح طالباً فاشلاً أو حتى متسولاً؟.. ولكنه بالتأكيد سيموت مثله مثل كل الأحياء على وجه الأرض وهذه سنة الحياة!

وفي دراسة أجريت في ألمانيا قبل سنوات تؤكد أن الرجال يكذبون على زوجاتهم بنسبة 67% من المعلومات التي يدلون بها إليهن، وأكثر النساء يدركن أن الأمر مجرد خدعة عابرة لكن لايعترضن ويعتبرن هذا نوعاً من إصلاح العشرة الزوجية التي لايمكن أن يستقيم قطار العمر إلا به.

وأعتقد أن الأغلبية لن يفعلوا مثل الرجل الصيني إذا سئلوا عن مستقبل الأطفال الرضع، وسيجاملون حتى لايطردون ولا يشتمون. وأعتقد أن الدراسة الألمانية من الممكن تعميمها على الكثير من المجتمعات.. والآن ما رأيكم هل هناك (كذب أبيض)؟!

كيف تقول وداعاً

من كلمات منصور الشادي وألحان أسطورة الموسيقى العربية بليغ حمدي، قدمت وردة الجزائرية قبل عشرين عاماً تقريباً أغنية (بودعك) واختار الإماراتي حسين الجسمي نفس العنوان في واحدة من أبرز الأعمال التي صنعت له جماهيرية كبيرة وجارفة على مستوى الخليج واتفقت الأغنيتان على فكرة واحدة وهي الوداع الجميل والنهاية الحلوة والرحيل اللذيذ وتقبل المصير المؤلم بروح رياضية مستعدة لفتح صفحة جديدة مع الحياة.. لكن لماذا يعتقد الناس دائماً أن المشهد الأخير يجب أن يأتي على طريقة الأفلام الهندية فيموت البطل أو يكتشف خيانة حبيبته أو نذالة وغدر أصدقائه أو يخذله أهله وإخوانه وأقرباؤه فتسيطر الدموع والأحزان والآهات؟!.. أقصد باختصار لماذا لا يكون اللقاء جميلاً.. والوداع أجمل؟!.. وفي الفيلم الأمريكي (الملك وأنا) يلفظ ملك سيام أنفاسه الأخيرة على فراش الموت ويستسلم لأقداره ويرفع عينيه إلى السماء ويقول: "إن من أصعب دروس الحياة أن يتعلم الإنسان كيف يقول وداعاً"!!

وبالفعل لو تعلم أي إنسان هذا الدرس العظيم وهذه الحكمة الخالدة لعاش دون حسابات الخوف من المستقبل واحباطاته الكثيرة وتعقيداته المستمرة ومفارقاته العجيبة.. والتاريخ مليء ومزدحم من رأسه حتى أخمص قدميه بأسماء عباقرة وأساطير وزعماء وفنانين وشعراء وفلاسفة عاشوا في الدنيا كما يريدون.. لكنهم أخفقوا وفشلوا في اختيار الوقت المناسب للانسحاب والابتعاد.. فكانت نهايتهم الانتحار أو الجنون.. فمثلاً أدولف هتلر أقوى زعماء القرن العشرين الذي قتل ما يقارب ثلاثين مليون شخص.. وكان يخطط أن تحتل بلاده "ألمانيا" العالم كله لمدة ألف عام.. وبالطبع فشل حتى في السيطرة على أوروبا، وجاءته فرص كثيرة لإيقاف نزيف الدماء.. لكنه ظل يعاند ويكابر دائماً ولم يقل وداعاً في الوقت المناسب حتى انتحر تحت قصر المستشارية وسط برلين مع حبيبته البنت الريفية إيفا براون!!

وليت هتلر نسي كل شيء وتذكر فقط ما كانت تقوله الروائية الأمريكية جورج إلتوت "بدايتي في نهايتي"..

أما قيس بن الملوح الذي أحب ليلى وكتب فيها أعذب ما قاله شعراء العرب طوال الأيام.. فعندما رفض أبوها الموافقة على زواجه منها ترك نجد وراح يعيش مع الوحوش والذئاب والكلاب وسط الصحراء حتى لقبوه بمجنون ليلى وانتهى ميتاً بين الرمال والأحجار وليت قيس نسي كل شيء وتذكر ما قاله وليم شانستون: "لقد كان وداعها جميلاً عذباً حتى ظننت أنها تقول لي: سأعود قريباً".. هذا هتلر.. وذاك قيس.. وهذا هو درس الوداع.. فمن يستوعب الحياة؟!

شعب متهور

لم تحرم المسؤوليات الكبيرة والمهمات الجسيمة بعض الرؤساء والزعماء من الانضمام إلى قائمة المؤلفين والكتاب والروائيين.

فهذا هو هتلر ألمانيا وقائدها التاريخي الذي كتب اسمه في صفحات التاريخ بالدم والنار والحرب والدمار وأزهق أرواح ثلاثين مليون نسمة،وظل حتى يومنا هذا رمزاً للديكتاتورية والفتنة والخراب وحكم بلاده 13 عاماً، وكان يحلم بفرض سيطرته على العالم كله ودخل السجن قبل الوصول للسلطة وفي ظلماته كتب قصة حياته بعنوان (كفاحي)، وروى كيف رفضته أكاديمية الفنون النمساوية عندما أراد أن يصبح رساماً حينما وصفت اللجنة لوحاته بالمتواضعة والبدائية وكان هتلر يقول عن أمريكا " إنني لا أرى مستقبلاً جيداً للأمريكيين.. في اعتقادي أنه شعب منخور.. كل شيء يتعلق بسلوك المجتمع الأمريكي يكشف أن نصفه متهور ونصفه الآخر مجنون".

وفي سجن آخر في قارة أخرى سطر أعظم عظماء القارة السمراء نيلسون مانديلا مشواره الطويل وكفاحه المثير نحو تحرير بلاده من أغلال العبودية والاستبداد في كتابه (رحلتي الطويلة من أجل الحرية) وظل مانديلا خلف القضبان 27 عاماً وعندما خرج إلى الضوء تولى قيادة دولته جنوب إفريقيا وتركها أرضاً خصبة للسلام والحب والتكافل.. وفي كتابه هذا وضع رؤيته الثاقبة لكيفية التعامل مع الحياة بشكل عام وكان يقول: "ما يميز فرداً عن فرد آخر هو قدرته على توظيف ما عنده من إمكانات وليس ما يعطي له من ممتلكات ومزايا".

أما الرئيس العراقي السابق صدام حسين فيشاع أنه كان مشغولاً قبل وصول القوات الأمريكية إلى بغداد بكتابة السطور الأخيرة من روايته (اخرج منها يا ملعون)، وهي الوحيدة من بين مؤلفات صدام التي ظهر عليها اسمه وعلى الغلاف كتبت ابنته رغد إهداء أشادت فيه بوالدها.

وتتلخص الرواية في رجل يتبنى تربية أبناء أخوته الأيتام الذين يلعب أحدهم ويدعى (حسقيل) دور البطولة حيث يتحدى ظروف الزمان ليتولى فيما بعد قيادة القبيلة وكأن صدام أراد نشر سيرته الذاتية ولكن بطريقة مختلفة خاصة وهو يقحم أحداثاً سياسية معاصرة في العمل الأدبي مثل إسقاط برجي التجارة العالميين يوم الحادي عشر من سبتمبر.

وقبلها قدم الرئيس العراقي الراحل ثلاث روايات بعنوان (ربيبة والملك) و(القلعة الحصينة) و(رجال ومدينة) ولم ترتق على رأي النقاد إلى مستوى تصنفها في طليعة ما

قدمه الروائيون العرب، وبقي عدم وضع صدام لاسمه عليها لغزاً محيراً!!

وأخيراً رئيس البوسنة والهرسك الراحل علي عزت بوجوفيتش الذي أهدى المكتبة الغربية كتاباً يحدث الأوروبيين بشكل خاص عن تسامح وروعة الدين الإسلامي الحنيف.. وبعد هذه النماذج نسمع أحياناً من يزعم بأنه لا يجد الوقت الكافي والأجواء الملائمة للكتابة رغم أنهم ليسوا رؤساء ولا مساجين!

ظلموهم يا طرفة

أهانوهم وأذلوهم وشتموهم وطردوهم وشردوهم.. لا أقصد الغرباء وإنما الأقرباء.. أمهاتهم وآباؤهم وزوجاتهم لكنهم انتصروا عليهم جميعاً وأصبحوا عظماء!!

هذه هي كل الحكاية..

والبداية من الطبيعي والمفروض أن تكون من سقراط أشهر فلاسفة التاريخ، فزوجته واسمها "انثيبيه" كانت تلقي ماء الغسيل القذر فوق رأسه، وتسخر منه وترميه خارج المنزل، وعندما طالبه تلاميذه بالدفاع عن نفسه قال:" زوجتي كالسماء ترعد وتبرق ثم تمطر؟؟!!".. وظل الفيلسوف الوقور صابرا محتسبا أمام ذلك الهوان المرير ليسجل نفسه مضربا للمثل أمام اضطهاد الضعفاء!!

وننتقل إلى كاتب فرنسا وأديبها العظيم بلزاك الذي عاش طفولة بائسة وكانت أمه أحق الناس بصحبته، تذيقه أنواع العذاب، وكانت تفعل كل هذا انتقاما من والده لأنها رأت معه أياما سوداء وليالي قاسية..!! ويقول بلزاك: "أمي تكرهني حتى قبل مولدي وهي السبب في كل ما حل بي من مآسي الحياة".. وبعد أن تخرج بلزاك من قسم القانون بالجامعة لم يرغب في تحقيق أمنيتها والعمل في المحاماة أو القضاء وإنما اختار الأدب فطردته، ليهيم مشردا بين شوارع باريس، وساءت أحواله لدرجة أنه فكر بالانتحار، لكن فجأة استعاد قواه بفضل سيدة تدعى "مدام برني" عطفت عليه وأخذت بيده ليشق طريقه ويقدم لبلاده سبعين رواية من أجمل وأروع ما عرفته المكتبة الأوروبية!!

ونذهب إلى طنجة المغربية المطلة على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط.. نذهب هناك ليس لوصف المدينة وشوارعها وشواطئها وقصورها ومغارة هرقل، وإنما لنتذكر ابنها المتمرد محمد شكري أغرب وأهم وأبرز كاتب عرفه الوطن العربي.. ولد في أسرة تعيش تحت خط الفقر.. أمه مسكينة ومغلوب على أمرها، وأبوه مجرم وعربيد ومتخلف وخريج سجون!!.. ولم يدخل شكري المدرسة ولم يعرف القراءة والكتابة إلا حين بلغ عشرين عاما من عمره.. وفي روايته الاستثنائية (الخبز الحافي) التي يستعيد خلالها سيرته الذاتية، وطبعت بعشرين لغة عالمية وباعت أرقاما خيالية رغم أنها ممنوعة حتى في وطنه!! ففي صفحاتها يروي كيف قضى أيام الصبا مع أب متوحش، قتل شقيقه الصغير فقط لأنه كان يسعل طوال الليل، وكيف كان يضرب أمه دائما، وكيف كان يعلقه من قدميه ويجلده بالحزام!!!

وأخيرا توم كروز.. ممثل يقف على رأس نجوم هوليود ويملك ثروة تناهز السبعين مليون دولار.. كروز كشف أنه لم يتذوق براءة الطفولة ووصف والده الذي كان يعمل كهربائيا

بالجبان والمتسلط وقال عنه: "إنه إنسان ينهال عليك بالضرب عندما تكون الأمور لا تسير على ما يرام.."

إن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة كما قال الجاهلي "طرفة بن العبد".. لكن بإمكان ظلم ذوي القربى أن يكون أفضل وسيلة للإبداع والثراء والشهرة.. ويصنع العباقرة والناجحين أيضا..

وأنت إذا كان عندك صديق وأهله وذووه وأقرباؤه يظلمونه ويعذبونه فبشره من الآن بأنه في طريقه ليكون مثل سقراط أو شكري أو حتى كروز.

أتعس النساء

لم تستمر حياتها أكثر من خمسة وأربعين عاماً لكنها كافية لأن تضعها بين أهم نساء التاريخ الحديث!

هذه هي (بولين) الفرنسية الجميلة التي سحرت قلوب رجال باريس، بل أوروبا بأكملها ولم يكن أحد يستطيع أو يجرؤ على الاقتراب منها أو حتى تشييد طريق للحب والغرام معها، والسبب أنها شقيقة الإمبراطور التاريخي القوي نابليون الذي فتح أمام بلاده أبواب المجد والإصلاح فخلده الزمن قائداً لا ينسى، وكانت امرأة غريبة في كل شيء فلا تحب مجالسة النساء وظلت ترافق نابليون في اجتماعاته قبل الحروب وفي وسط مجلس الوزراء أيضاً، وتزوجت في الرابعة والعشرين من أحد أصدقائه وقال لها نابليون في ليلة الزفاف: «حبيبتي بولين.. أتوسل إليك أن تفتحي قلبك للناس وأن تحبي زوجك وبيتك فحياة كل امرأة لا تستقيم إلا مع رجل وأسعدي نفسك فأنت الآن ناضجة.. أرجوك كوني عاقلة»!!

لكن بولين لم تسمع النصيحة ولم تستجب لكل النداءات وبعد فترة بسيطة قالت لزوجها: «لا يمكن أن نستمر كزوجين لأن كل منا يريد قيادة العربة»!!

وعندما تم الطلاق غضب نابليون وصرخ في وجهها.. «لماذا عدت؟.. كنت أتوقع أن تعودي».

فقابلت النار المتأججة من كل جسده بالماء البارد، وقالت: «تركته لأنه ليس مثلك.. ولا يشبهك في أي شيء إلا أنكما رجلان.. لم أتواءم معه وعدت إليك أنت.. لأنك أعظم رجل في التاريخ وأنا أجمل امرأة».

ورجعت لأيام الحرية واتخذت أحد ضباط الجيش الفرنسي عشيقاً لها لكنها لم تكن تحبه وكانت تصرح له ولكل الناس أنها تتسلى فقط!!

وكانت تملك (600) فستان ومجوهراتها تقدر بالملايين وتقضي وقتاً طويلاً في الحمام حيث تستحم بالزيوت والعطور وعندها خادم زنجي يحملها إلى الحمام الدافئ كل يوم ثلاث مرات في وقت كانت علاقة المرأة الفرنسية مع الماء والصابون ليست على ما يرام!!

وفي الثلاثين من عمرها تزوجت مرة ثانية وترملت بعد أقل من عام، ومرة ثالثة عند بلوغها الخامسة والثلاثين لكنها اعترفت بسرعة لزوجها بأنها امرأة خائنة لعش الزوجية فطلقها.. وعندما نفي نابليون إلى جزيرة (ألبا) بعد استسلامه أمام الروس أخذ بولين معه إلى هذا المكان الموحش وقبل أن تموت بأيام قليلة سألها نابليون لماذا أنت حزينة طوال الوقت؟ فقالت كلماتها الخالدة: «كانت حياتي تفسيراً يومياً لهذه الحكمة: أتعس الرجال أقواهم جداً وأتعس النساء أجملهن جداً.. وكنت أتعس الجميع لأنني كنت الجمال والقوة معاً»!.

عاشوا وماتوا

ولدوا على هذه الأرض، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولم يعمروا بالتأكيد، فكل من عليها فان، وهذا هو قانون الحياة الذي فرضه المولى جلت قدرته.. فلو كان هناك أحد سيبقى خالداً لظل الرسل والأنبياء الأولى والأحق بالاستمرار حتى تقوم الساعة وتشرق الشمس من مغربها.. فأبونا آدم عاش ألف عام، وهناك خلاف على موقع قبره فيقال في الهند أو في مكة أو بيت المقدس، أما إدريس فظل حيا يرزق (865) عاما، ولا أحد يعرف مكان دفنه، ونوح مكث في قومه يدعوهم (990) منذ مولده حتى مماته، الذي لايعرف أيضا أين كان.. أما هود فمجموع سنوات حياته (464) ودفن شرق حضرموت، وإبراهيم الذي حمل لقب أبو الأنبياء عاش (200) عام ودفن في مدينة الخليل الفلسطينية التي تحتضن أيضا قبر زوجته الأولى سارة.. وابنه اسماعيل عاش (137) سنة ودفن كما يقال بجوار والدته هاجر في مكة، واسحاق عاش (180) ودفن مع أبيه ابراهيم في الخليل، ويعقوب عاش (147) سنة وتوفي في مصر، وتنفيذا لوصيته نقله ابنه يوسف الى الخليل بعد وفاته، أما يوسف نفسه فقد عاش (110) أعوام ومات كما هو معروف في مصر ونقله أخوته تنفيذا لوصيته أيضا ودفن في مدينة نابلس.

ويقال إن أيوب عاش (93) عاما ودفن بجانب زوجته في قرية الشيخ سعد القريبة من العاصمة السورية دمشق. وموسى وصل به العمر إلى (120) سنة وتوفي في سيناء ودفن هناك وأخوه هارون عاش أكثر منه بعامين فقط ومات ودفن في نفس المكان.

وداود عاش مئة عام بالتمام والكمال ودام ملكه أربعين سنة، وسليمان لم يستمر أكثر من (52) عاما وورث ملك أبيه وعمره (12) سنة أي انه تولى الملك (40) سنة أيضا مثل داوود، وزكريا عاش (150) عاما ومات بطريقة بشعة وشنيعة حينما قتله أعوان ملك ظالم بالمنشار، وكذلك كانت نهاية ابنه يحيى الذي مات مقتولا على أيديهم أيضا تحقيقاً لرغبة امرأة فاجرة، كما يقول التاريخ.

وعيسى عاش (33) سنة فقط حيث رفعه الله إليه بعد بعثته بثلاث سنوات، وكانت والدته مريم توفيت بعده بست سنوات وكان عمرها (53) عاما.. وأخيرا خاتم الأنبياء والمرسلين وخير البشرية حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم توفي عن (63) عاما ودفن في بيت زوجته عائشة الذي أصبح فيما بعد من ضمن حرم المسجد النبوي.

وهناك الكثير من الأنبياء والمرسلين لم تذكر المصادر والكتب والروايات أي شي عن ميلادهم وسنواتهم ومماتهم.. رحمهم الله جميعاً وجمعنا وإياهم في الفردوس الأعلى.. يوم لا ينفع مال ولا بنون.

لكنه مجرم

حطمت مؤلفاته الأرقام القياسية في المبيعات وأصبح الكاتب الأول في بلاده واشتهر كمثقف وأديب.. ثم حطمت جرائمه القذرة كل شيء!

هذا النمساوي جاك انترويجر الذي عاش طفولة بائسة ومنحطة ومؤلمة بسبب أن والده تخلى عنه بعد ولادته مباشرة على اثر خلاف مع أمه التي رفضت هي الأخرى تولي مسؤولية تربيته ورعايته ورمت الحمل كاملاً على والدها العجوز صاحب الأخلاق المنحرفة!

فلم يحسن تربية الطفل الصغير ولم يراع أبسط الأعراف الإنسانية فكان يجبره على مشاهدة أفلام الجنس وشرب الخمر.. وعندما بلغ جاك السابعة من عمره أصبح يحتسي الشراب مثل أي سكير مدمن ويتحدث عن الفتيات والشذوذ الجنسي والممارسات المحرمة دون قيود!

ولأن قانون محاربة الأمية لا يسمح بترك الأطفال دون تعليم فقد اضطر الجد البذيء لإرسال حفيده إلى المدارس لكنه لم يستطع التأقلم مع بيئة نظيفة فوجد نفسه مطروداً بعد سنوات قليلة اكتفى فيها بإتقان الكتابة والقراءة!!

وعندما بلغ جاك الرابعة والعشرين من عمره ارتكب أول جريمة باغتصاب طالبة صغيرة ثم قتلها ليواجه عقوبة السجن مدى الحياة!

ومن داخل السجن بدأ جاك يشق طريقه ككاتب للقصص والروايات المسرحية البوليسية ونجح بدرجة كبيرة في توظيف ذكريات الماضي الحزين وآلام السنين وأيام الحرمان وحتى قتله للفتاة الصغيرة أحسن توظيف، وتسابقت دور النشر في فيينا للفوز بآخر إصدارات الكاتب المبدع وراء القضبان.. وانتفض المجتمع بكل طبقاته يطالب بإطلاق سراحه معتبرينه ثروة قومية لا يمكن أن تنتهي في ظلمات الغرف المهجورة بجانب المجرمين والقتلة ومروجي المخدرات رغم أنه في الأصل واحد منهم.

وبالفعل استطاع الضغط الشعبي الهائل بعد (15) عاماً تحقيق الهدف المنشود.. وعاد جاك للحرية من جديد وفي استقباله شهرة ذائعة الصيت، وقلم يترقبه القراء.. والأهم من كل هذا ثروة طائلة حصدها من إنتاجه الأدبي وتوزيع الكتب..

وبعد خروجه من السجن مباشرة فتحت له الساحة الأدبية النمساوية أوسع أبوابها فانتقل في أيام معدودة من رفاق السوء داخل السجون إلى مرافقة ومجالسة أعلام وأسياد الطبقة المخملية وتصدرت أخباره المجلات والصحف وشاشات التلفزيون وأغرقه رجال

الأعمال ورؤساء الشركات ومديرو المؤسسات بالحفلات الخاصة وانهالت عليه الهدايا من كل الاتجاهات.. لكن حليمة رجعت لعادتها القديمة!!

فبعد عام واحد فقط وفي خضم استمتاع جاك بالحياة الجديدة كان عدد جثث القتيلات يتزايد والجاني دائماً مجهول!!

والغريب أن الجرائم لا تتم إلا في الحي الأحمر على أطراف فيينا المشهور بالدعارة فيما جاك يتواجد هناك باستمرار ويقدم نفسه كمراسل إذاعي وكاتب مسرحي لإجراء تحقيقات صحفية مع الغانيات!! وأثار تردد جاك على الحي الأحمر شكوك الشرطة لكنهم لم يستطيعوا إثبات تورطه بقتل سبع عاهرات بطريقة واحدة، حيث يستخدم قفازات أثناء تقطيع ملابس الضحية ويخنقهن بحمالات الصدر ويتركهن عاريات دون أن يسرق حليهن ولا يأخذ أي شيء من أغراضهن!!

وحينما شعر جاك بالخطر وأحس بأن سره ربما ينكشف غادر إلى لوس أنجلوس الأمريكية ليواصل فيها ممارسة هوايته المفضلة بإبادة الفتيات ليرتكب ثلاث جرائم مماثلة وبعد بحث طويل توصلت الـ(FBI) إلى أول الخيوط عندما وجدت في سيارة جاك شعرة شقراء أثبتت الفحوصات المخبرية انطباقها على إحدى الضحايا فأعلنت الصحافة الأمريكية في فبراير عام 1992 أمراً بالقبض عليه وهرب من جديد واختار ميامي لتكون الوجهة التالية وظل جاك على تواصل دائم مع وسائل الإعلام رغم أنه مطارد ومطلوب للعدالة فنصبت له الشرطة فخاً بالاتفاق مع مجلة كان أحد كتابها.. وقامت على أساسه بتحويل مبلغ مالي له من مستحقاته إلى أحد بنوك ميامي وكانت سيارة الشرطة في انتظاره وتم القبض عليه وبعد التحقيق معه لمدة سنتين أعاده الأمريكان إلى بلاده حيث أعترف بكل جرائمه السابقة وعندما صدر الحكم بإعدامه أصيب المجتمع النمساوي بخيبة أمل وصدمة قوية.. أما جاك فشنق نفسه بأربطة حذائه ليطوي صفحة رجل جمع الثقافة والأدب والجريمة والدماء في قلب واحد!!.

يكره الشعراء

تفتح لهم الأبواب وتشرع من أجلهم النوافذ وتمهد لأعينهم الطرق السريعة.. يتربعون مقدمة المجالس ويتصدرون كل المهرجانات ويقيمون إقامة دائمة في الصحف والمجلات وكافة أنواع المطبوعات.. يعشقهم الأثرياء ويتودد لهم الفقراء ويقربهم القادة والزعماء.. هؤلاء هم الشعراء!

ومن تقوده الظروف والموهبة والقدرة للدخول بينهم يعرف أكثر من غيره ماذا يعني أن يصبح الإنسان شاعراً.. وعبدالوهاب البياتي أهم الشعراء العراقيين على الإطلاق يقول في هذا السياق: "الشعر هو السلوك الإنساني العظيم وليس هو الكلام الموزون المقفى، وأعتقد أنه ليس للحياة معنى بدون الشعر".

وحتى أرسطو كان يمتدح القصائد ويعتبرها من أنواع الإبداع، التي تمنح صاحبها الحضور الاستثنائي.. وكان هذا الفيلسوف يعترف ويقول: "الشعر أكثر فلسفة وأعلى قيمة من التاريخ".

أما أكثر من امتدح الشعراء فأظنه أميرهم أحمد شوقي في شطر أحد أبيات قصيدة (خدعوها بقولهم حسناء)، وظلت كلماته هي الملجأ دائماً لكل شاعر يجد أمامه نوعاً من التصغير أو التقزيم الغريب.. وحينما قال شوقي: "أنتم الناس أيها الشعراء".. تصدرت الكلمات الأربع خيال كافة المنتسبين للقصيدة في كل أنواعها فهي المحامي الدائم وصمام الأمان والمدافع المعتمد في وجه كل المهاجمين.

لكن تاريخ الشعر الطويل الحافل بالعطايا والهبات وتلك الأماكن المخملية لايمكنه تجاهل أو نسيان الروسي (جوزيف ستالين) لأنه باختصار كان الوحيد الذي كسر القاعدة، وأعلن العداء والكراهية للشعر والشعراء.. فستالين ابن رجل يعمل ماسح أحذية وأسمه (بيسو) وأمه فلاحة اسمها (إيكاترينا)، أما أسمه هو فيعني الرجل الفولاذي، وحكم بلاده بالحديد والنار.. وكان يمثل صورة واقعية للحاكم الدموي الذي يحب اللون الأحمر.. ولكن ليس على طريقة الثيران.. ووقع ستالين صك إعدام ستة وعشرين ألف مثقف وشاعر بولندي أثناء الحروب الطاحنة التي خاضها مع الأوروبيين.

وهناك قصة شهيرة ومعروفة تكشف مدى عدائيته للشعر.. فحينما جاءه المسؤولون عن قضايا النشر في الاتحاد السوفيتي وعرضوا عليه ديوان حب صغير لأحد الشعراء السوفيت تصفحه ستالين على عجل.. وهو واقف أمام باب مكتبه، وقال لهم: "كم نسخة ستطبعون من هذا الديوان؟" فقالوا: جئنا نستشيرك أيها القائد وننتظر توجيهاتك الأخيرة بشأن هذا النوع من الكتب.. فرد عليهم بعد دقائق معدودة كان يطالع فيها إلى السقف:

"أطبعوا إذاً منه نسختين، نسخة للشاعر ونسخة لحبيبته، فلا حاجة للاتحاد السوفيتي إلى كتب من هذا النوع".

إن الشعراء بلاشك يتداولون قصة ستالين هذه من باب الدعاية والنكتة التي لا يضحك عليها أحد، لولا أن الديكالتور التاريخي نجح في أن يكون صاحب موقف غريب وعجيب ولن ينساه الزمن، لأنه فقط وقف أمام شيء يحبه العالم كله، ولا يكرهه إلا ستالين.

وعندما مات في مطلع الخمسينيات بعد أن دس له وزير داخليته (بيريا) السم في طعامه وجدوا بجانبه ورقة مكتوباً عليها كلام لطيف وموزون يشبه الشعر.. فهل كان ستالين يريد أن يعيد النظر في علاقته مع الشعراء بعد فوات الأوان؟!.. الله أعلم.

أكثر لحماً

أمنح عقلك الكبير إجازة سريعة وتعال نتذكر قصص الأطفال الصغار..

كان هناك أسد وضبع وثعلب خرجوا في رحلة بحثاً عن الطعام وعند غروب الشمس عادوا بثلاث فرائس فاصطادوا غزالاً وحماراً وأرنباً فقال الأسد للضبع: أقسم بيننا نحن الثلاثة ما اصطدناه اليوم.. فقال الضبع: الغزال لك يا سيدي والحمار لي والأرنب ياكله الثعلب.. فقال له الأسد: لماذا قسمتها بهذه الطريقة، فرد عليه الضبع: الغزال أكثر لحماً وأشهى طعماً فاخترته لك.. والحمار أصغر حجماً وأقل قدراً فآثرت به نفسي.. أما الأرنب فهو كما تعرف لا يكاد يكفيك لقمة واحدة ويتناسب مع ذائقة الثعلب ولهذا كان من نصيبه فضربه الأسد ضربة مميتة فخر الضبع يسبح في دمه حتى مات وتوجه الأسد للثعلب وقال له: أقسم بيننا أنت أيها الثعلب، فقال ذلك الحيوان العبقري المليء بالدهاء والذكاء: الأرنب لإفطارك والحمار لغدائك والغزال لعشائك!!

فأعجب الأسد بكلامه وابتسم وطرح عليه السؤال الأخير: كيف تعلمت هذه القسمة العادلة أيها الثعلب.. فرد عليه: تعلمتها يا سيدي من موت الضبع!!

وعلى الرغم من أسطورية هذه القصة القصيرة وخلوها تماماً من المنطقية، إلا أن العقل الصغير يحتاج إلى الخيال أكثر من الواقع ويتمسك بالغرائب فلا تستهويه الدراما الباكية مثل المسلسلات الخليجية وهي تدمن النياح والصياح أو المصرية التي تحاول منذ أربعين عاماً حل مشاكل المخدرات وأزمة السكن والشقق.. ولم تفلح!!

وفي دراسة أمريكية ليست حديثة خرجت بنتائج أن الأفلام المتحركة تغذي الطفل بالمعلومة وتضعه في مواجهة الحياة دون الحاجة إلى نصائح الآباء والأصدقاء والمدرسين!

وراحت الدراسة إلى أبعد من ذلك.. وقالت إن الطفل الذي يشاهد ويتابع البرامج التليفزيونية المخصصة للصغار بمعدل ساعتين يومياً أكثر ذكاء بنسبة 20% من نظرائهم الذين تمنعهم عائلاتهم من متابعة الشاشة الصغيرة!

فإذا رأيتم أطفالكم بعد اليوم يتسمرون امام التلفزيون ويأكلون ويشربون فاتركوهم براحتهم.. لأننا بالفعل محتاجون إلى لأذكياء!!

..مغرورة يا بخت الغرور

يجتمعان.. ويتعانقان.. ويعيشان حياة هادئة مطمئنة دون أن يعكر صفوهما سوى كلمات وشعارات فارغة لا تسمن ولا تغني من جوع..!! وكثيرون يجزمون ويؤكدون ويقطعون أيماناً مغلظة أن الغرور لا ينام مع النجاح في سرير واحد ولا يأكلان على مائدة واحدة ولا يتحدثان لغة مشتركة ولا تربطهما علاقات قرابة أو معرفة أو جيرة أو صداقة ولا يعرفان بعضهما إلا من خلال كلام الناس.. وكلام الناس لا يقدم ولا يؤخر كما يقول جورج وسوف.!! لكن الحقيقة غير والواقع مختلف والتاريخ له رأي آخر..

خلوكم من الشعارات واتركوا عنكم اللي يقولون (الغرور مقبرة النجوم).. وتعالوا شوفوا قائمة طويلة قابلة كل يوم للزيادة تبصم بالعشرة أن الناجحين لم يحققوا إنجازاتهم وشهرتهم وثروتهم بالتواضع والأدب والأخلاق الرفيعة.. أبداً.. كانوا مغرورين ومتعالين وما يشوفون من الأرض شيء ومع ذلك نجحوا ووصلوا وشبعوا.. واحتلوا مكانتهم في قلوب المعجبين والمحبين والمغرمين والهائمين على وجوههم!!.. وحالتهم مثل ذلك الرجل الذي روى الزعيم الهندي الراحل نهرو قصته في كتابه (رسائل إلى أبنتي أنديرا) نقلاً عن حكيم صيني زار الهند قبل ألف وثلاثمئة سنة حيث شاهد رجلاً يطوف بالقرى مرتدياً حزاما من النحاس فوق بطنه وحاملا مصباحا فوق رأسه، وإذا سألوه عن تجوله بتلك الطريقة الغريبة قال: "إن عقلي عظيم إلي درجة أخشى معها أن ينفجر بطني من المعرفة إذا نزعت هذا الحزام، أما المصباح فإني أبدد به ظلام الجهل".. وهذا الرجل الهندي امتلأ بالغرور والكبرياء وثقة لا تتوقف عند حدود أو إشارات أو خطوط حمراء مثل أبوالطيب المتنبي.. لا فرق بينهما إلا بالزمن والأسلوب.. فالمتنبي ادعى النبوة وعمره تسعة عشر عاماً منطلقاً من حالة غرور غبية وجاهلة ومتغطرسة وفي كل قصائده وأشعاره كان يعتد ويتباهى بمناسبة وبغيرها لدرجة وصل به الحال للقول (أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي).

والمتنبي شايف نفسه ليس على البسطاء والمساكين وعامة الناس.. كان يحاكي الحاكم العباسي سيف الدولة من طرف خشمه.. وكان يظن أنه يستحق الظفر بمنصب سياسي رفيع والاشتراك بإدارة الدولة والدخول في السلطة وهو لا يملك أي شيء سوى قصائده.. قصائد مرة يشحذ بها ومرة يمدح.. ومرة يشتم.. ودائماً مغرور!!

وهناك القائد العسكري الأسطوري نابليون.. وللحق إنه باني فرنسا الحديثة واحد عباقرة الحروب على مدار التاريخ لولا أنه أخذ نصيبه من هذا الغرور وكان يعتقد دوماً أنه الأفضل في كل شيء.. في كل شيء حتى قصص الهوى والعشاق، وكان يردد بشكل مستمر "لو تفرغت للحب كما تفرغت للحرب لما تركت امرأة في حضن زوجها"!!.. وكان نابليون فاشلاً في الحب.. وانتهت حياته في المنفى.. لكنه مغرور!!

وآما الملاكم الأمريكي الراحل وبطل العالم ثلاث مرات محمد علي كلاي فيعترف بأنه مغرور من رأس وحتى أخمص قدميه وقال للصحفيين الذين سألوه عن أسلوبه الأناني وتعامله النرجسي مع الجماهير فرد عليهم بقوله: "حينما تصبح عظيماً من الصعب عليك أن تتواضع"!!

وتأتي مارلين مونرو أجمل شقراء في القرن العشرين.. كانت مغرورة وكانت تعشق التصوير إلى حد الجنون وتفتخر بفتنتها وعينيها وقدرتها على الإغواء.. كانت مغرورة أكثر من اللازم ولم يكن كافة من تعامل معها يعرف ماذا تريد وماذا تحتاج وأين ستصل بها الأمور..!!

وكانت مغرورة و ناجحة لدرجة أنها ظلت حتى الآن الأنثى الأكثر شهرة في تاريخ دولة عظمى مثل أمريكا.. ومغرورة يا بخت الغرور!!

ولابد أيضاً من حضور مارادونا.. والمعروف لا يعرف.. مارادونا الأفضل على الإطلاق.. مغرور بدرجة امتياز وكل ما طرحوا قضية مقارنته مع البرازيلي بيليه ضحك عليهم باستهزاء واستهتار.. ومعه حق..!!

هؤلاء نخبة من أصحابنا المغرورين.. أبدعوا وأمتعوا وكلما تحدثوا عن أنفسهم أسهبوا وتغنوا وتغزلوا ولم يقولوا كما كان يقول سقراط.. "أعرف شيئاً واحداً.. هو أنني لا أعرف شيئاً"!!

التواضع زين ومن تواضع لله رفعه.. لكن لا تدوخونا بسالفة الغرور يقتل النجوم ومن يقدر يصير مثل ماردونا ومارلين وكلاي خلوه يشبع غرور، وإذا قلنا له تواضع يا أخي.. لازم يقول: "من الصعب علي أن أتواضع"!!

من أهل سدوم إلى رونالدو

نعم عظماء.. أجل مبدعون.. بالتأكيد متميزون.. لا أحد يشك في نجاحهم وعبقريتهم وعطائهم لكن للأسف الزين ما يكمل.. للأسف رغم مشوارهم المليء بالإنجازات والأرقام والإعجاب إلا أنهم مثل أهل سدوم القرية الواقعة على أطراف نهر الأردن الذين أرتكبوا أفظع المحرمات وأقذر الممارسات وجاؤوا بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.. كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ثم بعث نبينا لوطاً عليه السلام لينصحهم لكنهم تكبروا وتجبروا فحل عليهم غضب الله.. وأنقذ سبحانه وتعالى لوط وأهله كما هو معروف في القصة الشهيرة إلا زوجته العجوز الكافرة التي تدعى (والعه) قبح الله وجهها!

ومنذ حكاية أهل سدوم قاتلهم الله انتشرت هذه الفاحشة وهذه الرذيلة في كل مكان على وجه الأرض.. حتى وصل الحال إلى أن يدخل الكثير من المشاهير في قائمة اللوطيين والمثليين والشواذ، فلم تنقذهم موهبتهم وذكاؤهم من السقوط في خطيئة لا تقبلها النفس السوية.. والبداية لابد أن تكون مع الشاعر العباسي أبونواس وأعتقد أن كل المخرجين والمنتجين والممثلين سيفشلون تماماً في محاولة تجسيد شخصية وتحويلها إلى عمل درامي تليفزيوني بسبب أن سيرته ملطخة بالمجون ومحاصرة بالعار وما يخدش الحياء ويشوه الأخلاق.. وثلاثة أرباع قصائده كتبها يتغزل بالصبيان والأولاد.. ولم يتعامل مقص الرقيب مع أي اسم أدبي كما فعل مع أبي نواس الذي ظل أعزب طوال حياته يعربد ويمارس المتعة المحرمة مع الغلمان حتى آخر أيام حياته التي يقال إنه تاب وعاد فيها إلى رب السماوات والأرض!!

ثم يأتي نابليون مؤسسة الدولة الفرنسية وباني نهضتها الاقتصادية والادارية وفارس فرسان حروب العصور الحديثة.. هذا الرجل لم يبلغ الثلاثين من عمره إلا ووجد نفسه يقود دولة مهمة وعملاقة وغنية وعرف عنه الخجل والحياء.. وتزوج مرتين لكنه لم يكن يثق بالمرأة كثيراً وكان يقول دائماً: "إنني أشك في عفة كل امرأة جميلة".. وعرف عنه أكثر تولعه المفرط والواضح بأي شاب وسيم لدرجة أن كل مساعديه في الجيش من أجمل رجال فرنسا كلها!!.. وكان نابليون يداعبهم ويلامس شعورهم وآذانهم ويلاطفهم ويدخل يده في صدورهم!!.. وفي المكتبة الأهلية وسط باريس هناك عشرات الخطابات الغرامية التي كتبها نابليون وبعثها إلى الجنود والضباط يروي فيها ولعه وعشقه وتعلقه بهم وبجمالهم!!

وقبل سنوات فضحت الصحافة البرازيلية المهاجم السابق والظاهرة الكروية رونالدو وكشفت بالتفاصيل الدقيقة قصته مع ثلاثة شواذ اصطحبهم إلى أحد فنادق مدينة ري ودي جانيرو حيث عاش معهم ليلة حمراء ومن بين الثلاثة شاب وسيم يعرف باسم أندريا البرتيني الذي قال للصحفيين إن رونالدو أعطاه (600) دولار بينما كانا قد اتفقا على (30)

ألف دولار مقابل تلك السهرة الماجنة.. وخرجت خطيبته بيا انطوني بعد الحادثة وقررت إنهاء علاقتها مع اللاعب وقالت بإنها لا تستطيع التعايش مع رجل يبحث عن الرجال ويتركها وحيدة!!

فعلاً الشهرة شيء لا معنى له كما قال تشرشل.. وأحياناً تصبح لا قيمة لها ولا تساوي جناح بعوضة كما أكد أبونواس ونابليون ورونالدو.. وإلا ايه رأيكم!!

ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟!

ارجعوا للتاريخ.. واتركوا البطل التركي مهند في حاله!!.. فمنذ أن عرض "نور" قبل سنوات والأصوات مرتفعة، والرايات خفاقة، والاتهامات كبيرة، والنصائح والعظات والإرشادات تتوالى كالسيل في وجه الحريم المسكينات الضعيفات ناقصات العقل والدين.. والسبب فقط أن ذلك الممثل التركي الأشقر الوسيم سرق قلوبهن، وانتزع إعجابهن، وأثار اهتمامهن واحتل آمالهن اليافعة.. واستعمر أحلامهن البريئة، واستولى على أمانيهن البسيطة، وصار حديث مجالسهن الأول والثاني والثالث والأخير.. والذين يريدون أن ترى المرأة مهند مثل أي راجل يمشي في الشارع على طريقة "شفيق يا راجل" بصوت الممثل المصري محمد نجم في مسرحية "عش المجانين" إنما يسعون عبثاً لتغيير الفطرة البشرية ويحاولون يأساً تبديل الطبيعة الإنسانية وتلك الأيام نداولها بين الناس!!..

فإن كانت البنت الحلوة تسقط الرجال ذوي الشوارب المفتولة والعضلات القوية والعقول الراجحة في هواها بضربة قاضية، فمن باب أولى أن يلعب الشاب المزيون بمشاعر وأحاسيس كائن تحركه عواطفه الرقيقة والناعمة مثل أخواتنا بنات وحفيدات أمنا حواء جمعنا الله وأياها في الفردوس الأعلى.

وهذا هو التاريخ يضع أوزاره، ويفتح صفحاته ويشرع أبوابه، فهل من متعظ؟!.. وهذه هي حادثة يوسف – عليه السلام – مع امرأة العزيز وكيف شغفها حباً في واحدة من أشهر قصص الأنبياء الكرام، فرغم أن زوجة العزيز (اطفير بن روحيت) المؤتمن في تلك الفترة على خزائن مصر، أي بمثابة وزير المالية وكذلك كونها ابنة أخت الملك "الريان بن الوليد" إلا أن "راعيل بنت راعاييل" وهذا اسمها ولقبها "زليخة" لم تقاوم جمال وبهاء وحُسن "يوسف".. وراودته عن نفسه وحاولت إرغامه على الرذيلة والزنا والفاحشة لكن سبحانه حماه من فوق سبع سماوات.. وعندما سمعت زليخة النساء يوجهن إليها اللائمة كونها ذات مكانة مالية واجتماعية وسياسية رفيعة، وتحاول معاشرة مجرد صبي يعمل في منزلها راحت وجمعت أربعين امرأة داخل قاعة الطعام، ووضعت أمام كل واحدة منهن سكيناً لأكل فاكهة الترنج، ولما بدأن بتقطيع الثمرة أدخلت يوسف عليهن.. وخدشن أيديهن، حيث لم يستطعن غض الطرف عن طلته البهية.. وانتصرت زليخة بعد أن أقنعتهن بأن الذي راودته لم يكن بشراً سوياً!!

أما حكاية عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – مع أجمل فتيان العرب "نصر بن حجاج" فهي دليل آخر، فحينما لاحظ الفاروق أن هذا الشاب أصبح مطلب البنات ومطمع السيدات،لدرجة ان النساء كتبن القصائد يتغزلن بجماله وفتنته فحيث إحداهن في أبيات غارقة في الحب والأمل:

هل من سبيل إلى خمر فآشربها

أو من سبيل إلى نصر بن حجاج

انظر إلى السحر يجري في نواظره

وانظر إلى دعجٍ في طرفه الساجي

وانظر إلى شعرات فوق عارضه

كأنهن نمال دب في عاجي

فناداه وأمر بحلق شعره، فصار نصر بن حجاج أكثر جمالاً وقبولاً وبهاء: وقالت إحدى الشاعرات بعد هذه الواقعة:

حلقوا رأسه ليكسب قبحاً

غيرة منهم عليه وشحا

كان صبحا عليه ليل بهيم

فمحوا ليله وأبقوه صبحا

ثم ألبسوه العمامة، فبدأ أنضر وأجمل، فقرر عمر بن الخطاب بعد ذلك نفيه من المدينة إلى البصرة لكن نصر بن حجاج اعترض في البداية ورفض الانصياع لقرار الخليفة وقال: "إن فراق الأوطان مثل قتل النفس" وذكّر عمر بقوله تعالى في سورة النساء (ولو أنا كتبنا عليكم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعله إلا قليل منهم)

فرد عليه عمر "يا بني ليس لك ذنب إنما الذنب ذنبي، أن تركتك تفسد في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم" وقرأ عمر ما جاء على لسان شعيب في سورة هود (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله).

ورحل نصر بن حجاج إلى البصرة وسكن عند قريب له يدعى (أبوالأعور) الذي طرده بعد مدة قصيرة عقب اكتشافه أن زوجته وقعت في غرام الضيف الجميل وصارت تخط على الأرض من فرط عشقها كلمات تقول فيها "لا صبر عنك"!!

وجاءت أم نصر تشتكي إلى عمر، قالت: "كيف يبيت إلى جوارك أبناؤك عبدالله وعبيدالله وعاصم وأنا بيني وبين أبني الفيافي والقفار؟!." فقال عمر: " إن بني لم تتغن بهم ربات

الخدور ولو فعلن ذلك لأخرجتهم من المدينة".

إنها صورة عابرة من ماضي المرأة.. أما حاضرها فالصحافة العربية انشغلت كثيراً بـ(مهند) وضحاياه وذكرت أن الأردن سجلت أول حادثة طلاق بسبب المسلسل التركي كون إحدى الزوجات اختارت صورة مهند على خلفية جوالها فلما رآها زوجها طلقها بالثلاث.. وفي سورية وضعت سيدة حداً لحياتها الزوجية مع رفيق دربها حينما قالت "أتمنى أن أنام ليلة واحدة مع مهند وبعدين أموت". وطبعاً تم طلاقها!!.. فيما أشارت جريدة اليوم السعودية أن امرأة قارنت بين مهند وزوجها ووجدت نفس المصير بانتظارها!!

وبالمختصر المفيد بعض الرجال المحترمين يعتقدون أن قلوبهم وحدها التي تعشق كل جميل.. وفي نفس الوقت لا يتذكرون أنه ما كمل من النساء إلا أربع: آسيا امرأة فرعون، ومريم العذراء، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة الزهراء.. تخيلوا أربعة فقط.. ثم اسألوا أنفسكم (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن)؟!!.

ماذا حصل؟!

انتصرت الشهوة القذرة وخسرت الموهبة الفذة!!

هذا هو اختصار لحياة أعظم لاعب كرة قدم مر على تاريخ مانشستر يونايتد الإنجليزي.

فلما بلغ الإيرلندي جورج بست السابعة عشرة من عمره ارتدى قميص الفريق الأحمر الشهير، وبعد أربع سنوات فقط استطاع قيادته إلى الفوز بدوري أبطال أوروبا كأول الأندية البريطانية التي تحقق اللقب القاري، وبعد أربع سنوات أخرى وجد بست نفسه يتربع على عرش أفضل لاعب أوروبي، ليعلن بعدها مباشرة اعتزاله الكرة رغم انه لايزال ابن الخامسة والعشرين ربيعاً، جامعاً ثروة طائلة بالملايين، وواصل بست احترافه وإبداعه ولكنه استبدل الكرة بالخمرة والملاهي الليلية والجماهير بالملذات الجنسية المحرمة!!

وبدأت أموره تنحدر وأوضاعه تزداد سوءاً وحالته تصعب على الكافر!!

وإلى جانب صرفه الباذخ لإشباع ملذاته، كان بست مغرماً إلى حد الجنون بالطيور والسيارات الفارهة، وكان يشتري بمعدل كل شهر سيارتين ويجمع أجمل أنواع الطيور في شقته ويقول بست عن هوايته: "لقد أنفقت الكثير من المال على المشروب والنساء والطيور والسيارات السريعة أما الباقي فقد بذرته تبذيراً".

وتمر السنين على نفس الإيقاع الشاذ حتى وصل بست إلى حافة الفقر والحاجة، ولم يعد ذلك الأسطورة الكروية شخصاً يستحوذ الاهتمام والحب والإعجاب في بلد يمنح نجوم الكرة كل شيء.

وفي إحدى الليالي الحمراء انحنى نادل يعمل في خمارة على بست يسأله بحسرة وألم وكان يشجع مانشستر ويقول له " أخبرني سيدي ماذا حصل حتى تغيرت الأمور"؟!.. وعندما تجاوز بست الخامسة والخمسين أجريت له عملية جراحية استبدل خلالها كبده الذي أتلفته الكحول، وتعهد بست للأطباء بمقاطعة الخمور للأبد، ولم يف بوعده ويعود لمعاقرتها مرة أخرى.. فيداهمه مرض الموت بنزيف داخلي عجز كبار الأخصائيين في مستشفى كروموبل غرب لندن عن إيقافه لتطوى الصفحة الأخيرة في الخامس والعشرين من نوفمبر عام 2005، وينتهي ذلك المهاجم المرعب الذي هز الشباك (180) مرة.. ولا أحد يعرف كم مرة هز كؤوس الخمر!!

لكنها طويلة

لم يحتج أبوالقاسم الشابي أكثر من خمسة وعشرين عاماً ليعتلي قمة المجد وينتزع لقب (شاعر تونس الخالد) وقبل سنوات احتفل التوانسة بذكرى مرور سبعين عاماً على غياب أسطورة رحلت عن الدنيا وتركت وراءها تاريخاً يتوارثه الأجيال بعد مرض سريع داهم قلبه المرهف ونقله إلى قائمة الأموات في عمر الزهور، وظلت قصيدته (عذبة أنت) التي لحنها وغناها محمد عبده واحدة من أهم الأعمال الموسيقية التي شكلت منعطفاً أعطى هذا الفنان تذكرة المرور إلى مسامع أبناء العالم العربي من المحيط إلى الخليج..

وغير أبوالقاسم عشرات لم تمهلهم الحياة طويلاً لكنهم ملاؤها وجوداً وفناً وعطاء وإبداعاً، فاستغلوا كل لحظاتها بالعمل وتحقيق الذات وصناعة انتصارات شخصية يسطرها الزمان بمداد من ذهب فإذا فاجأهم هادم اللذات على حين غرة وأطلق صافرة نهاية التحدي وقبضت أرواحهم وصعدت إلى السماء خرجت الأرض تسجل اعترافاتها بأنها ستظل وفية معهم ولن تنساهم!!

الروسي (بوري جاجارين) من المنطق أن يتصدر هذه القائمة الألماسية لأنه أول رجل فضاء عرفته الإنسانية عندما وقع عليه الاختيار من بين طلاب مدرسة الطيران في موسكو، وبدأ يتدرب ثلاث سنوات قبل اقتحام المهمة الصعبة، وفي عام 1961 شد الأحزمة على متن المركبة (فوستوك) وقام بجولة في مدار حول الكون وعندما عاد استقبله الروس استقبال الفاتحين والأبطال المنتصرين وبعد سبع سنوات فقط وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين سقطت طائرته من طراز ميغ 15 ليصبح أو لمخلوق يتعرف على انعدام الوزن ثم يخضع لقانون الجاذبية الأرضية من أجل الموت!!

أما النايلون الذي بات من أهم أدوات الحياة الحديثة والاستغناء عنه ضرب من المستحيل ولا يكاد بيت ثري أو فقير يخلو منه فإن مخترعه كيميائي أمريكي يدعى (كاروثرز) وكان موظفاً في شركة تجارية مشهورة ومات منتحراً في عامه الواحد والثلاثين وسط ظروف غامضة!!

وسيبقى مرضى السكري مدينين للدكتور الكندي (فريدريك بانتنج).. كان الموت يحصد صغارهم وكبارهم بلا هوادة حتى اكتشف عبقري الطب هذا الأنسولين عندما راجعه أحد المصابين بعطب في غدته البنكرياسية دون أن يصاب بالسكر فعرف بانتنج أن سبب فشل محاولات استخلاص الانسولين يعود إلى أن الخمائر الهضمية التي تدمر الأنسولين أثناء عملية استخلاصه.. لكن الذي أنقذ الملايين لم يستطع الاستمرار في الوجود فأمر الموت بيد الله وحده فطويت صفحة هذا الطبيب بوفاته مريضاً قبل أن يدرك الأربعين من عمره!!

إن بعض الأعمار قصيرة في حسابات الأوراق والأرقام وتواريخ الميلاد فقط لكنها طويلة وشامخة وتستحق التقدير والاحترام والحب والثناء.. أجل قصيرة والقصر ليس عاراً دائماً.. وغيرها طويلة والطول ليس عزاً دائماً..

على مسمى

بالتأكيد وقفت أحياناً تتساءل عن قصة أو معنى أسماء غريبة لمعالم مشهورة.. بعض العواصم العربية مثلاً.

بغداد التي يجري فيها الدم الآن بمحاذاة دجلة والفرات ليكمل اللون الأحمر النهر الثالث في مدينة شهدت حكايات أشهر حكام بني العباس هارون الرشيد، واسمها مركب نسبة إلى (بغ) ويعني باللغة الفارسية بستان، أما (داد) فهو صاحب البستان الذي قامت عليه أرض عاصمة أهل العراق.

وتقول أكثر الروايات تداولاً إن المدينة الإماراتية الأولى أبوظبي حملت هذا الاسم من خلال قصة رجل اصطاد ظبياً على أرضه بعد مشقة وعناء وجهد كبير، ولما أسعفه الحظ وأمسكه كان الرجل يلهث من التعب والعطش، فذهب يبحث عن الماء حتى وجد بئراً، لكن الحظ هذه المرة كان قاسياً معه وكشر أنيابه في وجهه، لأن البئر لم يتبق فيه قطرة ماء،

فمات الصياد والظبي.. واكتشفت جثتاهما فسمى ذلك البئر أبوظبي فأخذت المدينة اسم البئر!!

أما دمشق فبناها (جيروز) حفيد نبي الله نوح عليه السلام، ورغم أنها مدينة ضاربة في أعماق التاريخ إلا أن اسمها الحالي لم يلتصق بها إلا في رواية تبدو الأقرب للواقع والتصديق حيث طلب معاوية بن أبي سفيان بناءها بشكل حديث حينما استلم زمام قيادة الدولة الأموية وطلب من العاملين الإسراع في تشييدها بأي شكل من الأشكال، وكان يمشي بينهم أثناء العمل ويقول لهم محفزاً "دمشقوها.. دمشقوها" فسميت بدمشق!!

وننتقل إلى أكثر عواصم العالم العربي ازدحاماً وصخباً.. القاهرة، المدينة التي لا يغفو لها جفن على مدار العام، وقد بناها القائد جوهر الصقلي أسطورة الفاطميين العسكرية وسماها المنصورية، ولما وصل الخليفة المعز لدين الله إليها قادماً من المغرب وتسلم الحكم والإدارة بعد الصقلي، سماها القاهرة تيمناً بقهرهم لأعدائهم!!

وفي الخرطوم يلتقي النيلان الأزرق المنحدر من أثيوبيا والأبيض المنساب من أوغندا، فيشكلان ما يشبه خرطوم الفيل وهذا هو سبب مسمى عاصمة الإخوة السودانيين.

أما الرباط فأنشأها الخليفة المنصور لتكون عاصمة دولة الموحدين، واختاروا لها هذا الاسم لأن الجيوش كانت ترابط فيها دفاعاً عن الأراضي والمقدرات الإسلامية في المغرب الأقصى والأندلس..

إن لكل اسم في الدنيا قصة وحكاية وأحياناً رواية، فإذا كنت ممن يعشقون الأشياء بأسمائها، فهذه هي الرباط والقاهرة ودمشق.. اختر ما يحلو لك وعش حياتك.

لا تتكلم يا جبان

قل لها أي شيء.. لكن انتبه تطري لها سالفة الزواج من امرأة ثانية؟!

أما إذا كنت ناوي تقهرها وتلعب بأعصابها وتدبل كبدها وتخليها تحاكي نفسها وتبدأ توسوس وتفز من فراشها في منتصف الليل وتلاحقها الكوابيس والأحلام المزعجة وتتراجع صحتها وتنسد شهيتها ويضيق صدرها.. في هذه الحالة فقط تفضل أيها الزوج العزيز وقل لها إنك راح تطق الثانية..!!

وذكرها بقوله تعالى (وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع).. وقل لها أيضاً إن بعض المفسرين قالوا إن القاعدة في الزواج هي الارتباط بأكثر من واحدة والدليل انه قال (مثنى وثلاث ورباع) ولم يقل واحدة!!

وعلى مدار التاريخ كله لا تقبل المرأة مهما كانت هذا المشروع المباح الذي أحله الله سبحانه من فوق سبع سماوات.. واما لماذا.. فلا تتعبوا أيها الرجال أنفسكم بالبحث عن إجابة لأنكم ما راح توصلوا للحل النهائي.. وخليكم على رأيكم القديم بأنهن ناقصات عقل ودين!!

فمثلاً هذه سيدة نساء الجنة فاطمة الزهراء ابنة خير من وطأت قدماه الثرى عليه الصلاة والسلام أراد زوجها علي بن أبي طالباً رضي الله عنه الزواج عليها واختار ابنة أبوجهل.. فلم ترفض فحسب بل ذهبت وبكت واستنجدت بوالدها صلى الله عليه وسلم والذي نجح فيما بعد بإجهاض المخطط عندما تعامل مع المسألة كأب لا كرسول ووقف في وجه على بن أبي طالب وقال له بأن ابنة رسول الله لا تجتمع مع ابنة عدو الله في بيت واحد رغم أن ابنة أبوجهل كانت صحابية ومؤمنة.. وتراجع علي ولم يتزوج إلا بعد وفاة فاطمة.

وهذه هي ثريا أصفند ياري.. تلك الإمبراطورة الجميلة زوجة شاه إيران محمد رضا بهلوي التي لم تكن قادرة على الإنجاب وكلما حاول الشاه إقناعها بأن يأتي بزوجة ثانية تنجب له وريثاً يحفظ ذريته وأملاكه وتاريخه وأيضاً قيادة البلاد من بعده ترفض وبالتأكيد تغرق وجهها بالأسى والألم والدموع، وكان الشاه يحبها ويعشقها لولا أن السلطة والمال والجاه والملك لا تكتمل زينتها إلا بالأولاد.. ثم وافقت ثريا على مضض بأن يتزوج امرأة تنجب له الأولاد لكنها وضعت شروطاً قاسية وشبه مستحيلة من بينها ألا يكون لهذه الزوجة أي دور في حياته سوى إنجاب الطفل ولا تظهر معه في الاحتفالات ولا تحصل على امتيازات معنوية كالبروتوكول الذي اعتادت عليه زوجات القادة والزعماء.. والشرط الأكثر قسوة وجنوناً أن يطلقها بعد إنجابها للطفل الأول وتتولى ثريا نفسها تربيته والاهتمام بشؤونه ورعايته، لكن الشاه وجد نفسه في نهاية المطاف مجبراً على أن يضحي بثريا لأنه لم يجد

بنت عائلة تستحق مصاهرته القبول بتلك الشروط فتنازل عن الحب واختار الأولاد.. وبالفعل تزوج وأنجب بينما خرجت ثريا من إيران إلى أوروبا وصارت قصتها مادة دسمة للصحافة.. فكانت تنشر صورها تحت عنوان (الجمال الحزين).. وفي السينما تقدم الدراما كل يوم نصف الحقيقة الأخرى بعرض أفلام ومسلسلات تموت الزوجة ولا يتزوج زوجها.. وسبق أن نشرت إحدى المجالات الأسبوعية العربية تحقيقاً مؤلماً وغريباً وعجيباً لكنها الحقيقة وكما يقول بيرون "إنه شيء عجيب ولكنه حقيقة لأن الحقيقة دائماً شيء عجيب"!

وهذا التحقيق الغريب العجيب انتهى بنتيجة مفادها أن 75% من النساء العربيات يفضلن أن يخونهن أزواجهن على أن يتزوجوا امرأة ثانية!!

والواقع مثل التليفزيون والمجلات.. مافيه فرق.

وأيضاً ما فيه فرق بين كلام الحريم.. كلهن ما يحبن طاريه.. فإذا كنت جباناً لا تطريه وألعب على قدك!!

ضحكت عليه

لاتتوهم ولاتستمر في هذا الخيال الكاذب.. فالماضي يا صاحبي ليس دائماً عنوان السعادة والفرح والأيام الحلوة والليالي الجميلة، بالتأكيد لا أحد يلومك باستعادة ذكريات وأوقات ولحظات لا تنسى، لكن احذر أن تعيش في أوهام خادعة ترسم لك الأمس بأنه زمن الأحلام الوردية، واليوم وقت الشقاء والعمل ومصارعة الحياة والغد مجهول وعلمه عند الله.

أبداً فالدنيا ليل ونهار.. ضحك وبكاء.. لعب وجد.. وهكذا حتى تقوم الساعة.. وكثير من الناس يعيش طويلاً في الماضي، كما يقول توفيق الحكيم، والشعراء العرب منذ العصر الجاهلي وهم يتحسرون كثيراً على أيامهم الماضية، رغم أنهم ولدوا وعاشوا وسط الصحاري المقفرة الجافة المرعبة لا وسط فيينا وأمستردام ولاس فيجاس.. ويبقى الشاعر المصري إبراهيم ناجي أشهر من كتب عن الماضي بقصيدته التاريخية "الأطلال" التي يقول مطلعها "يا فؤادي رحم الله الهوى".. وسبب هذه الشهرة بالطبع هو ارتباطها بصوت سيدة الغناء العربي أم كلثوم التي رفضتها في البداية.. لأنها لم تكن تحب الغناء من كلمات شعراء مازالوا على قيد الحياة مجاملة للشاعر أحمد رامي، الذي شكلت معه ثنائياً ملأ الدنيا وأطرب الناس، وبعد محاولات مستمرة من ناجي نفسه وتدخل شخصيات موسيقية وأدبية كبيرة رضخت أم كلثوم لتلك الوساطات، لكنها في نفس الوقت اشترطت عدم تأدية قصيدة الأطلال كاملة كونها طويلة، حيث تحتوي على "132" بيتاً وطلبت أم كلثوم ديوان شعر إبراهيم ناجي واختارت مقاطع من قصيدته الأخرى "الوداع"، التي تقول فيها "هل رأى الحب سكارى مثلنا"، لتدمج القصيدتين في أغنية واحدة، ووافق ناجي، "مكرها لا بطل" على عملية الدمج الكلثومية حتى لا يخسر الأطلال إلى الأبد، وكان معه حق.. فلو لم تغنها أم كلثوم لظلت هذه الأسطورة الأدبية نائمة في صفحات الكتب الصفراء نومة أهل الكهف.

إن هناك من يظن أن أم كلثوم ضحكت على ناجي.. لكن الحقيقة أن السيدة أنقذتنا من بؤس البكاء، وجعلتنا نضحك على الأطلال.. ضحك طفلين معاً وعدونا فسبقنا ظلنا.

اسمع كلام الراهب

يقدم لك كل شيء.. أجل كل شيء.. كل ما رأته عيناك وما سمعته أذناك وخطر على قلب بشر.. هذا هو المال يجعلك حائزاً على كل شيء إلا الحب والسعادة كما يقول تولسوي!!

وقبل سنوات.. وفي حوار ممتع ومثير مع مجلة بونته الألمانية المهتمة بأخبار المشاهير يعترف رجل الأعمال الملياردير الأمير الوليد بن طلال بأنه لا يتذكر أبداً مروره بفترة طوال حياته شعر فيها بالسعادة الكاملة مشيراً إلى أن السعادة التي يتحدث عنها الناس هي مجرد لحظة ليس إلا والأهم لديه هو راحة البال.. ومؤكداً بقوة أن زيادة عدد الأصفار في حسابه لا تعني أن يصبح إنساناً آخر.. ويضع الوليد بن طلال شهادة من خلال الخبرة والتجربة بأن المال لا يمكنه مهما زاد وتضاعف أن يولد شعوراً بالسعادة.. هذا كلام رجل يعتبر أحد أثرياء العالم كله بحسب تصنيف مجلة فوربس الأمريكية.

وتعال نتذكر قصة عبدالرحمن الناصر أجدر وأشهر وأبرز الأمويين في الأندلس.. تولى الحكم خمسين عاماً ونال المجد والثروة والسلطة وحقق الانتصارات المتوالية وحظي بالاحترام والتأييد والتقدير وسط دولة كانت الاختلافات والانقلابات تقطعها من كل الجوانب.. هذا الحاكم الذي أطلق عليه ابن خلدون لقب "حلف السعود" أي حليف السعادة والراحة والبهجة والسرور لم يكن سعيداً أبداً.. وقبل أن يموت عن عمر يتخطى السبعين جلس يتذكر لحظاته الحلوة ولياليه الحالمة وأوقاته الممتعة.. فلم يجد بعد حساباً دقيقاً سوى أربعة عشر يوماً من الخمسين عاماً كلها التي كان فيها يملك الدنيا وما فيها.. لم يكن له فيها إلا أربعة عشر يوماً.. وفعلاً ما أحد مرتاح كما يقول الرويشد!.. وكثيرون يظنون ويعتقدون ويتوهمون أن المال والسلطة هما الوسيلة لتحقيق كل الغايات.

والحكماء دائماً يتفقون أن السعادة مرتبطة بالقناعة ويرفعون شعار القناعة كنز لا يفنى.. ولو سألت أحدهم لأهداك على الطاير القصة الإسبانية الشعبية الشهيرة التي تحكي عن فقير ومعدم لا يملك حذاء ويمشي حافياً وكان يتذمر ويتحسر ويندب حظه العاثر وسوء حاله وقلة بخته.. حتى جاء يوماً فرأى رجلاً يسير في السوق بمساعدة يديه لأنه فقد أقدامه فتأكد أنه يملك ثروة لا يملكها غيره.. وعرف أن قدمين حافيتين أفضل مليار مرة من جسد بلا أقدام!

وأنت أمامك حلين والثالث ما بيرضيني كما تقول نوال الزغبي.. فأما أن تأخذها من قاصرها وتغني على أنغام الفقير الإسباني، وإما أن تبحث لك عن تعريف خاص بالسعادة وتقاتل طوال عمرك على تحقيقه.. وتذكر مثلاً أن هاني الرهيب يقول في روايته (رسمت خطاً على الرمال) أن السعادة هي أن تعيش مع امرأة جميلة تحبك!.. هذا كلام الراهب..

وأنت قل ما تشاء وافعل ما تشاء ولا يهمك أحد.. المهم أن تكون سعيداً في حياتك.. وربنا يسعدك ويسعدنا!!

البطل البنغالي

بطلنا ليس أمريكيا ولا فارساً عربياً.. بطلنا العامل البنغالي شاليم حسين الذي استغل الفرصة الذهبية وفعلها وودع الفقر والحاجة إلى الأبد!!

وحكايته بدأت بانتقال الشاب الصغير مع والده عبدول الطباخ ووالدته بيغام واخوته الثمانية من مدينة سيلهات ثالث أكبر مدن بنجلاديش إلى مدينة كارديف في مقاطعة ويلز حيث يملك عمه مطعماً يقدم لزبائنه المأكولات الهندية.. وعاشت العائلة الكبيرة في غرفة واحدة، حيث لا تستطيع مواجهة غلاء العقارات وظل الأب وأبناءه الأولاد الأربعة ومن بينهم شاليم هناك يعملون في مطعم العم.

وفي أحد الأيام اختلف عمه مع موزع الجمبري وتوقف عن تمويله وكان شاليم قد تعرف في وقت سابق على أحد الزبائن الذي يعمل في بيع المأكولات البحرية فاتجه اليه وطلب المساعدة واشترى منه ستة صناديق جمبري بالدين وباعها على عمه ورد المبلغ إلى صديقه التاجر وأخذ ربحاً متواضعاً فقفزت إلى رأسه فكرة الاستمرار في هذه العملية لكن مع التوسع وعرض بضاعته وخدماته لكل المطاعم في كارديف، وبالفعل يتطور الأمر وينجح شاليم بسرعة مذهلة ويفتتح مكتباً ويوظف اخوته لإدارة حساباته ولم تمض سوى ست سنوات إلا وشركته الصغيرة تربح (40) مليون جنيه إسترليني كل عام لتنمو تجارته وتتخطى أوروبا وتصل إلى أمريكا وآسيا فيفتتح فرعين في نيويورك، ومسقط رأسه شليهات.

ويرفض شاليم دائماً الحديث عن الماضي الكئيب ويقول: "كان حالة مريعة ولا أريد أن أتذكر أي شيء في تفاصيلها المؤلمة"!

وهكذا هي النجاحات لا تعترف بالمكان والزمان.. لا تعترف سوى بمن يعترف بها مثل ما يقول المعلقون (الكرة تخدم من يخدمها).. وطبعاً كلامهم خرابيط، فكم فريق عملت عنده الكرة خادمة وموظفة متواضعة ولم تخدمه بل لم تمنحه أي ابتسامة!

..أتركوها أيها الرجال المحترمون!!

لا تسويها.. وإذا سويتها فراح يظنك الناس مجنوناً وسخيفاً وتافهاً ومزاجك مضروباً ولا تستحق الدخول في أي قائمة تضم آخر الرجال المحترمين!!

أنا أنصحك ويا ليتك تسمع النصيحة.. أحذرك.. وأنت حر!!

وبالعربي وبكل وضوح أقصد لا تتهور وتتغزل بأقدام الحريم والبنات والفتيات الصغيرات!!.. يعني خلك مثل كل الشعراء والأدباء والكتاب الرومانسيين.. (كل أبوهم من أولهم إلى آخرهم يمدحون عيونها وشعرها وقوامها وطولها وأردافها وأكتافها.. كل شيء يمدحونه.. وإذا وصلوا إلى أقدامها توقفوا وعرفوا أنها منطقة محظورة حتى وإن كانت تلك الأقدام على الطريقة الصينية القديمة).. والصينيون كانوا يقيسون جمال وحلاوة وأنوثة المرأة بقدميها دون أي شيء آخر.

وعندما يتقدم أحد الرجال يطلب بنت الحلال فإن أهلها يتركونها وراء حجاب ويخرجون قدميها فقط، فيمسك العريس بالقدم، ويختبر نعومتها ويقيس أطوالها وحجمها، فإذا كانت صغيرة وأعجبته دغدغها، كإشارة للقبول والموافقة بعد هذه الرؤية الشرعية!!..

وظلت حياة النساء الصينيات لمدة ألف عام تقريباً، رحلة طويلة من العذاب والمعاناة والألم، لدرجة تصل أحياناً للشلل والموت بسبب حرصهن على ألا تكبر أقدامهن، فيرفض الرجال الارتباط بهن. فكل أنثى صينية تبلغ الحادية عشرة من عمرها تنتظرها عملية شد تعتمد على قطع أربعة أصابع في اول الأمر وشد الإصبع الخامس إلى الكاحل لتظهر القدم صغيرة بدون زيادة الأصابع!!.. ويقال إن العادة والمزاج الغريب توارثه الصينيون من امبراطورهم القديم الذي وقع في غرام راقصة ذات قدمين صغيرتين فعشقها وكان يمتدح دائماً أرجلها فاعتقد أهل الصين أن الجمال يقع تحت وليس فوق!!

أما الفيلسوف الألماني الكبير باول تليش فهو أيضاً من نوادر الرجال في التاريخ.. ليس بعلمه ونظرياته ورؤيته للواقع والمستقبل وإنما أيضاً بعشقه الكبير للأقدام واعترف بمذكراته أن أجمل ما في المرأة ليس وجهها وإنما قدماها، وكان يقول: "الذين لا يعرفون ماذا تخبئ أقدام المرأة لا يعرفون الجمال الحقيقي، ففي هذه القدم توجد كل ملامح الوجه من العينين والشفتين والنعومة والانسياب"!!.. ويصر تليش الذي مات في منتصف الستينيات على أن الإغريق والرومان كانوا جميعهم يعشقون أقدام المرأة، ولهذا ظهرت حضارتهم مليئة بالحب والرومانسية والتفاهم بين الطرفين!!.. وزوجة تليش نفسها تضع اعترافاً آخر لا يقل غرابة عن كلام رفيق دربها فتقول: "قبل أن أتزوجه طلب مني رؤية قدمي.. ولما رآها وافق على إتمام مراسم الزفاف"!!

وحينما سألت المذيعة الكاتب المصري الراحل عبدالوهاب مطاوع عن أطرف رسالة تلقاها من القراء أكد في مقابلة تليفزيونية أنها جاءته من شباب يروي معاناته الغريبة في الأسواق والشوارع العامة وكلما شاهد قدماً جميلة ينحي بسرعة أمام السيدة أو الفتاة ويستأذنها بطبع قبلة على حذائها، فإذا وافقت مارس هوايته المفضلة وإذا رفضت اعتذر واحترم رغبتها وانسحب بكل هدوء!!.. وقدم عبدالوهاب مطاوع نصيحة على الشاشة لهذا الشاب بمراجعة طبيب نفسي والعلاج من حالة ربما لا توجد في العالم إلا عند تليش والصينيين القدماء!!.

أتركوا الأقدام في مكانها.. وارفعوا رؤوسكم أيها الرجال المحترمون.. وإذا ابتلاكم الله بحب وعشق الفتنة بالأقدام فلا تخبروا أحداً.. فإذن ابتليتم فاستتروا.. واستروا على أنفسكم.. فإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم.. وتعاملوا معها مثل الفضيحة وتذكروا قول نيتشه "تتطلب المصائب إما الصمت وإما التحدث عنها بإصرار وبراءة"!

أحياناً يعطيه

ليس دائماً فاقد الشيء لا يعطيه والدليل البرتغالي جوزيه مورينهو.

غاب تشلسي الإنجليزي خمسين عاماً عن البطولات وقطع هذا الفريق الأزرق كل علاقاته مع المنصات وسحب سفراءه المعتمدين من الأمجاد والألقاب والانتصارات حتى جاء الملياردير الروسي إبراهيموفيتش ووضع أمام عينيه إعادة النادي العريق من جديد إلى المواقع الأمامية وكانت أول قراراته التعاقد مع مورينهو الذي استطاع تسجيل إنجاز تاريخي مع بورتو البرتغالي بتحقيق الدوري والكأس في بلاده قبل أن يعتلي عرش القارة الأوروبية وينتزع كأس أبطال الدوري وكأس الاتحاد أيضاً وفي عامين فقط!

وبالفعل نقل المدرب طموحاته إلى لندن وعاد تشلسي زعيماً للكرة الإنجليزية لكن الذي لا يعرفه الكثيرون عن مورينهو أن علاقته مع الملاعب بدأت حينما اتجه في أول حياته ليعمل مترجماً مع الإنجليزي بوبي روبسون حيث كان يتولى المسؤولية الفنية لفريق سبورتنج لشبونة وانتقل معه مترجماً ايضاً إلى بورتو وواصل المشوار بجانبه في برشلونة الإسباني ثم قرر بوبي تعيين مورينهو مساعداً له وتمضي السنين ويتسلم مورينهو أول منصب تدريبي مع بنفيكا البرتغالي ليطير لقيادة فريق مغمور يدعى (ليرا) وحقق معه نجاحاً أسطورياً بفوزهم بكأس الاتحاد الأوروبي وبعدها حط رحاله في بورتو ووصل إلى عالم الشهرة.. حتى أصدر موقع (إيفش) الألماني المتخصص في إحصائيات كرة القدم العالمية نشرته ووضع مورينهو على رأس أفضل مدربي العام ورمى خلفه أبرز الأسماء الخبيرة في اللعبة الشعبية الأولى.. ويتقاضى مورينهو سنوياً أكثر من (ثلاثين مليون ريال سعودي) راتباً سنوياً، أي ما يعادل أرباح بعض الشركات المدرجة على شاشة الأسهم!

وحتى تعرف أن فاقد الشيء يعطيه فإن مورينهو الذي نتحدث عنه ونصفه بأفضل مدربي العالم لم يلعب الكرة طوال حياته، ولم يشترك مع منتخب بلاده أبداً وكل ما كان يعرفه عن الكرة أن والده كان حارس المنتخب البرتغالي السابق.. ليس أكثر!

مجرد درس

حينما بدأ الموت يتسلل إلى غرفة أعظم رجال بني أمية الحاكم العادل العاقل التقي عمر بن عبدالعزيز، دخل عليه مسلمة بن عبدالملك وطالبه بأن يترك لأبنائه مالاً يعتاشون منه أو يوصي عليهم أحداً يكون لهم عوناً وسنداً أمام صعوبات الحياة، لكن عمر رفض هذا الطلب وتجاهل تلك الوصية وتبرع بكل ثروته الطائلة وأمواله وقصوره ومزارعه لبيت مال المسلمين، ويقول وهو على فراشه في اللحظات الأخيرة من بقائه فوق الأرض كلمته الشهيرة: "بأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء".. وعندما جاء أولاده يحصون الميراث والتركة لم يجدوا سوى ثمانية عشر ديناراً لا تكفيهم طعاماً وشراباً ولباساً إلا أياماً قليلة!

ثم يتولى هشام بن عبدالملك الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد ويسير في أول الأمر على نهج عمر بالعدل والاستقامة قبل أن تتحول أموره وينصت لجلساء السوء وبطانة الباطل ويموت هشام ويترك لكل زوجة من زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار إضافة إلى عشرات القصور والمزارع والبساتين.. وتمضي الأيام وتمر السنوات والأعوام فإذا الناس يشاهدون ما لم يكن يخطر على قلب بشر،.. ففي يوم واحد يحمل أحد أبناء عمر بن عبدالعزيز مئة فرس ليتبرع بها للمجاهدين في سبيل الله.. فيما أحد أبناء هشام بن عبدالملك يسير بين الطرقات يسأل الناس ويرجوهم ويتوسل إليهم إعطاءه ما يكفي مأكله ومشربه!

إنه درس من الماضي البعيد.. يصبح الإنسان الفقير ثرياً.. ويمسي المليارديرر بحسابات ذلك الزمان شحاذاً!

أسكنك الله الجنة وجمعك مع الشهداء والأنبياء يا عمر.. رحمك الله يا هشام!

هذا يزعجني

هناك اعتقاد شبه سائد عند الرجال في كل مكان حول العالم.. هو أن النساء تافهات!!.. وكلما احلوت المرأة تضاعفت هذه القناعة الغريبة!!

لكن الراحلة مارلين مونرو أجمل نساء التاريخ الأمريكي تنفي هذه التهمة جملة وتفصيلاً.. عاشت فقيرة ومعدمة وأمضت طفولتها في أحد الملاجئ وروت فيما بعد قصتها كاملة هناك وسط الأجواء المشؤومة فقد عذبوها وأجبروها على الرذيلة والشذوذ مع زميلاتها والمدرسات ومديرة الملجأ أيضاً!!.. وهربت من الملجأ وعملت في أحد مصانع الطائرات حتى اكتشفها مصور مغمور ونقلها إلى هوليوود وأراد الزواج منها فرفضت لأنها أحبت الصور وليس المصور!! وتزوجت لاعب كرة ولم تستمر معه طويلاً وانتقلت إلى منزل المنتج السينمائي والكاتب الشهير آرثر ميلر الذي توفي قبل سنوات وطلقها في نفس اليوم الذي أصبح فيه جون كيندي رئيساً لأمريكا.. وقال فيها ميلر بعد الانفصال "لم تكن تقول لا.. هذا كان يزعجني دائماً".

ونجحت مارلين بإعادة هيبة الفتاة الشقراء في وقت غزت فيه موضة الشعر الأسود أوروبا وأمريكا عندما رسخت حياتها وثروتها الفاحشة لخدمة جمالها وابتسامتها الساحرة لدرجة أنها أدمنت المهدئات والمخدرات بعد نصيحة كاذبة من خادمتها التي أقسمت لها أن تلك الأقراص للبشرة!!.. وماتت في مطلع الستينيات وبكى عليها الناس وكتب فيها الشعراء أعذب المراثي ورسم لها الفنانون لوحات الحزن والألم والحرمان.

وقبل حادثة مقتلها أو انتحارها الغامض بثماني سنوات وفي عز مجدها الأسطوري سألها الصحفيون عن الرجل الذي تتمنى الزواج به بعد أن حققت ما تتمنى أي فتاة على وجه الأرض تحقيقه فلم تختر ممثلاً أو ثرياً أو عارض أزياء وإنما أجابتهم وهي تقول (إينشتاين) الذي بعث إليها بطاقة كتب عليها: "مع احترامي وحبي وشكري".

هذه مارلين التي لا يهمها إلا المكياج والعطور تعشق عالم الفيزياء وأستاذ أساتذة النظرية النسبية المعقدة فهل فعلاً النواعم تافهات؟!!

نصيحة نخلة وأغنية حليم..

العلاج واضح وبسيط ومجاني وسهل الاستعمال وبين يديك في أي لحظة ولا يحتاج إلى بطاقة تأمينات أو وساطة قريب أو صديق يعمل في أحد المستشفيات.. وما عليك إلا أن تصغى مسامعك لنصيحة شاعر لبنان الراحل أمين نخلة وتأخذها بحذافيرها والباقي خله على الله.. فإذا اكتأبت وحزنت وتألمت وتضايقت وحاصرتك الهموم ارجع إلى نخلة وتذكر كلامه قبل أكثر من أربعين عاماً عندما قال:

(ابك رحمك الله.. إن هذه الدموع مطافئ الحزن الكبير).

وهناك عشرات الدراسات التي تؤكد أهمية الدموع في دفع الإنسان نحو الأفضل ترسيخاً لما قاله ابن الرومي (لم يخلق الدمع لامرئ عبثاً)، وكان آخرها ما قدمه العالم الكيميائي الأمريكي وليم فري حينما جمع أكثر من (300) حالة من الجنسين وبعد ثلاثين يوماً اكتشف أن 45% من الرجال لم يبكوا أبداً طوال تلك الفترة لأي سبب فيما لم يبق سوى 6% فقط من أخواتنا بنات والدتنا الفاضلة حواء لم يراق لهن دمع!

وكشفت الدراسة أن المرأة تبكي شهرياً خمس مرات مقابل مرة واحدة للرجل، والسبب ليس مرتبطاً كما يعتقد الناس بالعواطف النسائية الناعمة أو طبيعة الرجل الجافة والجادة والحازمة.. أبداً وإنما المسألة تتوقف بشكل مباشر عند هرمون البرولكتين وهو المادة الأساسية في تكوين الدموع كونه موجوداً بنسبة كبيرة عند المرأة مقارنة بالرجل ويقول فري: "للدموع دور عام في حياتنا فهي تعمل على إخراج المواد السامة التي تولدها بعض حالات الانفعال والاكتئاب، ولذا فإن حبس الدموع يعرض الإنسان للإصابة بالتسمم البطيء، إضافة إلى كبت هذه الدموع يقود لأمراض متعددة مثل الطفح الجلدي وتعطيل الجهاز التنفسي وكذلك فإن البقاء بلا بكاء ودموع في حالة الأحزان هو طريق إلى قرحة المعدة والقولون".

والمفاجأة أن الدراسة أشارت إلى وقت تفضله المرأة للبكاء هو بين السابعة والعاشرة مساء، ويرجع فري السبب على الأغلب إلى كونه وقت حلول الظلام وبداية السكون والهدوء إلى الكون وربما يكون السبب أن هذا التوقيت هو اجتماع العائلة في أمريكا وبداية المناقشات وأساليب الحياة والمطالب والمشاكل بين المرأة وزوجها.

والبكاء بالتأكيد لا ينقص من قيمة الرجل ولا يحط من مكانته وقيمته وأهميته وأيضاً قيادته فخير البشر رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم بكى عندما توفي آخر أبنائه إبراهيم في حضن أمه ماريا وهو لم يتجاوز عمره العام وأربعة أشهر وقال بعد أن أودعه تحت الثرى "إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون".. وكذلك

فعل يعقوب عليه السلام بعد فقدان ابنه يوسف الذي حاول آخوته اغتياله لكن المخطط فشل كما هو معروف في القصة الشهيرة وبكى يعقوب كثيراً على فراقه لدرجة أنه فقد بصره والله سبحانه وتعالى يقول (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم).. ويقال إن أحد الحكماء تحسر على وفاة ابنه وظل ملازماً لقبره وغلبته الأحزان واستمر يبكي كالأطفال، فقال له أحد أصدقائه "لماذا تبكي وأنت تعرف أن الحزن لا يفيد ولن يعيد ابنك إليك".. فرد عليه بعد تفكير قصير: "إن هذا هو ما يبكيني"!!

ويقال أيضاً إن هناك عشرة أنواع من الدموع، فمثلاً دموع الانتصار هي الدموع العظيمة، ودموع الصغار هي البريئة، ودموع التوبة تسمى المؤثرة، ودموع المرأة توصف بالرقيقة ودموع الوفاء يعتبرونها الأجمل، ودموع العزاء خاصة بالأحداث الحزينة، ودموع النجاح مرتبطة بالسعادة، ودموع الألم هي القاسية، أما دموع الندم فهي الأكثر قدرة على التعبير، وأخيراً دموع التماسيح التي ارتبطت بالتلاعب والخداع، لكن الواقع أن التماسيح لا تبكي كما يشير المثل لأنها باختصار ليس لديها غدد دمعية مثل الأسماك وما يراه الناس حول عينيها أثناء خروجها من الأنهار والوحول هو بقايا مياه عالقة حول أجفانها ليس إلا..!!

وعلى الطرف الآخر كثيرون يرفضون البكاء كما كان يردد الشاعر المصري أحمد زكي أبوشادي بقوله: (لكن البكاء للحر قيد) ويعتبرون أغنية عبدالحليم حافظ (أي دمعة حزن لا لا لا) التي كتب كلماتها الشاعر محمد حمزة هي المفضلة لديهم في كل الأوقات.

وأعتقد أن أجمل من رد عليهم وأفحمهم وكفانا عناء مجابهة أنصار هذا الرأي هو شاعرنا السعودي فهد المساعد وهو يقول:

الدمع ماهو عيب رح علم اللي

يقول عمره مابكى في حياته

الدمع مايقطع صلاة المصلي

والضحك مثل إبليس يقطع صلاته

ومن الآن خلك شجاع ولا يهمك أحد وخربها وتجرأ وارفع شعار (ابكي للدنيا تضحك لك).. على الأقل تضمن صحة جيدة وروحاً مرتاحة.. وشكراً فهد.. وشكراً نخلة.. وشكراً ابن الرومي.. وهاردلك يا أبوشادي.. وهاردلك يا حليم.. وهاردلك يا حمزة!!

.. وحبيبته كانت تخونه!!

الخيانة قاسية ومؤلمة وقذرة وصعبة ومجنونة ومدمرة وشريرة.. وكثيرون تعرضوا للخيانة فخسروا الحب والثقة والوئام مع الحياة.. وخسروا أنفسهم أيضاً.. والله لا يحب الخائنين.

والخيانة ليست مقتصرة على ارتكاب الفاحشة والرذيلة والزنا في عالم المتزوجين، لكن الصورة الذهنية المتأصلة في عقول الناس مرتبطة بشكل مباشر بهذه المسألة.. والغريب أكثر أن الخيانة لا تتلقفها إلا النساء والبنات والستات والفتيات.. بينما الرجال والفتوات والأباضايات يسرحون.. وفي كل واد يهيمون!!.. أقصد أن الرجل إذا خبص وراح يمارس المجون مع امرأة سيئة السمعة فلا يوصف بالخائن.. بينما الحرمة تتوج باللقب حتى لو لم تتجاوز الأدوار التمهيدية!!.. ويمكن عشان كذا سموها حرمة.. يعني حرام عليها.. حلال على غيرها!!

والقرآن الكريم وصف زوجة نوح عليه السلام (والهة) وزوجة لوط عليه السلام (والغة) بالخائنتين، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التحريم: (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما)، ويتفق كافة المفسرين أن خيانة والهة لنوح تأتي في سياق كونها كافرة وادعاءاتها الباطلة دائماً بأنه رجل مجنون!

أما خيانة والغة للوط فهي تنحصر حول إخبار قومها الجبارين المتعجرفين المتكبرين الشاذين بالضيوف الذين يأتون إلى مجلس لوط.

وابن عباس رضي الله عنه يقول "مازنت امرأة نبي قط".

وهذا يؤكد أن الخيانة لا تتوقف عند ليلة حمراء خارجة عن النص والقانون والنظام والأعراف والمبادئ والأخلاق، وقبل كل ذك عن تعاليم هذا الدين العظيم!

والتاريخ سيحفظ أن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وأرضاها أشهر من اتهمت بالخيانة وهي بالطبع بريئة براءة الذئب من دم يوسف.. وذلك في حادثة الإفك المعروفة التي وجه عن طريقها المنافقون سهام الحقد والبغضاء للرسول صلى الله عليه وسلم حينما حاكوا قصة كاذبة بين عائشة والصحابي الجليل صفوان بن المعطل وبرأها المولى جلت قدرته من فوق سبع سماوات بآيات كريمات في سورة النور بقوله تعالى: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم).. وقال لها زوجها أشرف من وطأت قدماه الثرى حبيبنا

محمد عليه الصلاة والسلام بعد هذه الحادثة الأليمة "أبشري يا عائشة قد أنزل الله براءتك".

أما أقسى الخيانات التي عرفها العالم في العصر الحديث فكانت بطلتها (ويني ماديكيزيلا) زوجة الزعيم الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا الذي مسح الأمريكان اسمه من قائمة الإرهابيين.. قبل موته بعشر سنوات!!.

فقبل دخول مانديلا السجن عاش قصة حب جارفة مع ويني انتهت بالارتباط والزواج، وبعد أربعة أعوام من هذا الاجتماع الأسري رمى مانديلا في غياهب السجون على أثر دفاعه المستميت عن قضيته الوطنية بتحرير بلاده من آثار العنصرية.. وظل وراء القضبان سبعة وعشرين عاماً تبادل فيها مع ويني رسائل دافئة بكلمات الحب والحنان والأيام الحلوة والليالي الصاخبة والأحلام العذبة والآمال المتجددة باللقاء ونشرت ويني الرسائل بكل تفاصيلها في كتابها (قطعة من روحي) الذي حكت على صفحاته بأسلوب رومانسي كيف أحبت وعشقت مانديلا من رأسها حتى أخمص قدميها.. لولا أن الغرام تحول إلى حطام.. العشق صار كلاماً على ورق.. الهوى الغايب أصبح أم المصايب!!.. حيث اكتشف مانديلا بعد إطلاق سراحه أن ويني كانت تخونه مع محاميه.. وحاميها حراميها.. وطبعاً طلقها لأنها لا تستحق البقاء في بيت رجل باع ر بع عمره وقضى أجمل الاوقات في عزلة وظلام وأجواء موحشة.. بينما ويني تنعم مع المحامي دفاعاً عن أنوثتها وحقها في الحياة..!!

وروسيا لا يمكنها نسيان المرأة القوية كاترينا الثانية التي حكمت البلاد أربعة وثلاثين عاماً قبل أكثر من مئتي سنة وكانت تطلب من الجميع الخضوع والذل والطاعة المطلقة.. كانت تطلب هذا من الجميع بمن فيهم زوجها المغلوب على أمره.. وكانت تخونه مع عشاقها وجنودها وهو يعرف ذلك لكن ليس له حول ولا قوة واكتفى بأن يردد طوال عمره مقولته الخالدة: "في الدنيا سؤالان بلا جواب.. الأول: كم عدد النجوم في السماء؟.. والثاني: من هم آباء أولادي"؟!

فيما استمرت كاترينا تعيش وبين عينيها ما قالته مسالينا زوجة الإمبراطور كلوديوس "يكفي أن تخلصي للرجل وأنت بين ذراعيه.. إنهم لا يستحقون أكثر من ذلك"!!

والمسلسل التركي سنوات الضياع الذي عرض قبل سنوات قليلة واجتذب وألقى بظلاله على ملايين المشاهدين لدرجة أن مئة ألف سعودي استخرجوا تأشيرة سفر إلى بلاد مصطفى أتاتورك وكأن أبطال العمل سيستقبلونهم في مطارإسطنبول.. هذا المسلسل تدور أغلب أحداثه وحكاياته حول الخيانة.. الست (هالة) كانوا يظنونها خائنة مع صديقها طارق صاحب المكتبة.. ورفيف حامت حولها الشكوك مع يحيى.. ولميس مع تيم.. وهكذا!!

ولا أظن أحداَ يمكنه نسيان مارلين مونرو.. الفاتنة الشقراء بابتسامتها الساحرة التي تخفي وراءها كل الأسئلة والإجابات.. كانوا يصفونها بأجمل امرأة في تاريخ أمريكا.. هذه مارلين ضمن طاقم الخائنات الحلوات.. تزوجها الكاتب والروائي العملاق آرثر ميلر ولم يستمر طويلاً فارساً لأحلامها الكثيرة والكبيرة والغريبة وظل يسمع أنها على علاقة مع شخصية سياسية نافذة.. وفي نفس يوم تنصيب جون كنيدي رئيساً للولايات المتحدة طلقها.. طلقها آرثر وريح دماغه.

وعبر واحدة من روائع الشاعر عبدالرحمن بن مساعد يربط فيها النحس والحظ الرديء بالخيانة ويقول "ماتت أمه.. وحبيبته كانت تخونه"!!

فعلاً.. الخيانة مثل الموت.. مثل الموت.. ومش أي موت.. موت الأم مثلاً!!

وغيرهم أيضاً

لا تتعاطف أو تندفع مع الشعارات التي تتهم التلفزيون بتشويه صورة المتخصصين في علم النفس، فالشاشة أحياناً كثيرة تعكس الواقع بالتمام والكمال.. والانطباع السائد عنهم عند الناس أنهم (موسوسون، ودكاترة مهابيل)، وحتى لا نظلمهم أكثر تعالوا نستعرض تاريخهم وأساتذتهم.

الإنجليزي هافيلوك أليس.. يعتبر أعظم علمائهم انشغل بالدراسات الجنسية، وكرس حياته لكتابة مؤلفه الشهير (دراسة في سيكولوجية الجنس) في سبعة مجلدات لاتزال تحقق مبيعات قياسية في أوروبا وأمريكا، وتزوج هافيلوك بإحدى طالباته وعاش معها قصة فاشلة وأياماً كئيبة وسنوات مظلمة وحاولت هذه الزوجة الانتحار ثلاث مرات ثم أصابها الجنون أخيراً.. وعندما ماتت وتجاوز هافيلوك الخامسة والخمسين من عمره تزوج بفتاة تصغره بأكثر من واحد وثلاثين عاماً وحاولت هذه الشابة أن تعيد للعالم الكبير لذة الحياة لكنها بالطبع فشلت وهربت تبحث عن نفسها عبر الطرق القذرة!!

أما فرويد صاحب النظريات الخالدة وأبوالتحليل النفسي كله فكان مدمناً للكوكايين، ولم يتوقف عن التعاطي رغم إصابته بالسرطان وأجرى عشرين عملية جراحية في شفتيه وطرده الألمان من بلادهم خوفاً من نشر الرذيلة والفجور لأنه كان يرى أن المدمنين أناس عظماء وشرفاء ولم يتوقف عند هذا الحد بل كان يقول لتلاميذه إن الإدمان (إدمان أي شيء) هو أبرز انتصارات الذات!!

وعبقري التحليل النفسي السويسري كار يونج لديه شخصية غريبة وتصرفات عجيبة فكتبت مديرة منزله الإنجليزية في مذكراتها: "كنت أدير بيتاً يعيش فيه واحد من أهم العلماء على مر التاريخ.. لكنني كلما دخلت للاطمئنان عليه أجده واضعاً إصبعه في فمه يمصه طوال الوقت كالأطفال ولم أعرف لماذا يفعل ذلك في أي فرصة يكون فيها وحده".. ويكفي أن نتعرف على شخصيته أكثر من خلال ما قالته زوجته بعد رحيله "كنت أعيش في جحيم.. لم أكن متزوجة بشراً.. كان مجرد إنسان آلي"!!

والآن هل تحتاج إلى أمثلة أكثر.. لا أظن ولذلك تعال معي لنقف في الحياد، فالإمبراطور التلفزيون لا يقول الحقيقة دائماً لكنه ليس دجالاً وكاذباً ومخادعاً طوال الوقت، والدليل علماء النفس.. أقصد هافيلوك وفرويد وكارل يونج وغيرهم أيضاً.

وخسرت ماريا كل شيء

أحياناً طويل.. أحياناً أبيض.. أحياناً أسمر.. أحياناً طيار.. أحياناً مهندس.. أحياناً طبيب.. أحياناً مطرب أو ممثل أو لاعب كرة.. أحياناً وسيم ومزيون ومملوح وحلو ويجنن وياخذ العقل.. لكن دائماً وأبداً وفي كل حين يجب أن يكون ثرياً ويملك المال والسيارات والحسابات.. باختصار يجب أن يكون عنده فلوس زي الرز كما يقول المصريون!!

وهذا هو فارس أحلام كل بنت وفتاة ومراهقة بدأت ترسم بخيالها صورة عريس المستقبل، ولا أحد يلومها بأن تتمنى حياة هنيئة، فترتدي أغلى المجوهرات والألماس والإكسسوارات وتضع على بشرتها أحدث ما أنتجته شركات التجميل وتلبس آخر موضات دور الأزياء العالمية.. وتأكل وتشرب ما لذ وطاب وعندها ثلاث شغالات وتسافر إلى دبي كل شهر مرتين!!

وهي تتمنى أيضاً أن تعيش قصة حب عاصفة تدغدغ مشاعرها الناعمة وترفرف فوق قلبها الملهوف وتشكل الدنيا وسط عينيها بألوان البنفسج والموف والأخضر والعسلي والفستقي.

تتمنى أن تحب حتى تنسى النوم كما تقول الأسطورة فيروز.. وعندما يصطدم الحب مع الفلوس يأتي الصراع بين العقل والقلب.. والدراما العربية والخليجية تقدم دائماً في أعمالها التليفزيونية والسينمائية هذه الصورة المملة والغبية فنشاهد نفس الحوار ونفس السيناريو ونفس المعالجة ونفس النهاية حينما تختار البنت بعد ضغوط عائلية ابن التجار الأثرياء وتترك الحبيب الغالي وراء ظهرها يبني أحلامه بهدوء ثم يحقق النجاح وتفشل هي مع الزوج المليونير وتعض أصابع الندم!.. هذا في الأفلام والمسلسلات والواقع له من الطيب نصيب.

فأهم وأعظم وأبرز الروائيين الإنجليز تشارلز ديكنز كان مغرماً من راسه حتى أخمص قدميه بابنة مدير أحد البنوك، وكانت جميلة وفاتنة ومثيرة واسمها ماريا بندل وحينما أراد الزواج منها دخل على الخط رجل أعمال من أكبر أثرياء لندن وطلب يدها وخطب ودها فوافقت وراح الأديب يبكي عند قدميها ويتوسل إليها ويرجوها أن تحافظ على هذا الحب لكنها رفضت بشدة ولم يضعف قلبها أمام دموعه وقالت جملتها الشهيرة: "ديكنز شاب لطيف لكنه أديب والأدباء لا يستطيعون الزواج، ولا يمكنهم توفير احتياجاتهم، فكيف أتزوج ديكنز وهو لا يملك إلا الأدب والكتابة؟ وهل يقدر على تحمل مطالبي وتحقيق أحلامي بقلمه وأوراقه"!.

وأشادت أسرتها كثيراً برجاحة عقلها وقرارها الحكيم الذي سيقودها لراحة البال طوال العمر.. وتمر الأيام سريعة وبعد سنوات قليلة فقط يتعرض زوجها لأزمة مالية خانقة ويعلن

إفلاسه ويخسر كل شيء ويضطر لبيع قصوره ومزارعه بالمزاد، وتتجرع معه مذلة الفقر والمشاكل والهموم وتحاصرهم الديون من كل اتجاه.. وعلى الطريق الآخر واصل ديكنز إبداعه الأدبي وحصد نجاحات متوالية وأصبح عن طريق كتاباته وأعماله من أغنى أغنياء بريطانيا وتلاحقه المعجبات والعاشقات في كل مكان لكن بعد فوات الأوان.. حيث أغلق ديكنز هذا الباب إلى الأبد ثم تزوج بطريقة تقليدية، ووقعت أخت زوجته "ماري" المريضة بالقلب في غرامه ولم يكن يبادلها الحب وإنما فقط كان يحترم مشاعرها وفي إحدى الليالي دخل البيت وسمع ماري تصرخ فأسرع إلى غرفتها، ووجدها تلفظ أنفاسها الأخيرة متأثرة بنوبة مفاجئة داهمتها أثناء النوم وأعطته خاتمها وتوسلت إليه أن يرتديه ويحافظ عليه حتى الموت، وبالفعل استجاب لهذا الطلب البسيط.. وتقدم به العمر ولم تغادر ماريا بندل خياله وروحه لحظة واحدة، وكان يردد دائماً: "عن طريق الزواج ستعرف معنى المجتمع ولكن ليس من أجل هذه المعلومات القليلة التافهة تعاني كل هذا العذاب".

لقد خسرت ماريا الحب وخسرت الحياة الهانئة المطمئنة.. وخسرت ديكنز أيضاً.. أرادت أن تكسب كل شيء.. ولا أحد يلومها.. كانت تحلم مثل كل فتاة في الدنيا، لكن الحلم لم يتحقق وهذا فوق طاقتها.. وربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به.

ناجح ومغرور

لا تصدقهم دائماً إذا قالوا إن الغرور مقبرة النجوم!

التاريخ كله لا يعرف أكثر غروراً وتعالياً ونرجسية وكبرياء من الإنجليزي جورج بروميل الذي كان يقول: "أعرف أنني مختلف عن الآخرين.. ولهذا من حقي أن أكون أكثر غروراً وأعرف أن كل إنسان يحب نفسه وأنا أحب نفسي لأنها تستحق الحب"!.. ومن وراء هذا الغرور الواثق، ومن قلب ذلك العشق الذاتي وجد بروميل نفسه مصمم أزياء بلا مقدمات لأنه يهتم كثيراً بأناقته ويحافظ على وسامته بارتداء أجمل وأغلى الملابس، ولم يكن بروميل غنياً لكنه استطاع أن يوثق علاقته مع أحد أمراء بريطانيا فأصبح يصرف عليه ويوفر له كل احتياجاته وكان يكره قصص الغرام ويعتبرها ضرباً من الجنون ويقول فيها وعنها: "لا أفهم لما تتعذب هي أيضاً.. إن الحب فعل مشترك فلماذا أكون أنا الخاسر دائما".. ويقول أيضاً: "أنا مثل نابليون.. عندي قوات احتياطية لكراهية المرأة".

وبروميل هذا المغرور أول رجل في الدنيا يرتدي قمصاناً بلا ياقات، وأول من اخترع القمصان ذات الأكمام القصيرة، وأول من صمم الجاكيت ذا الأزارير المتعددة.. وفي سنوات قليلة استطاعت أفكاره وحركاته وتصاميمه أن تغزو أوروبا ومن ثم العالم كله، وتمر السنون ويصبح بروميل من ذوي الأملاك ويأتي بخادم ليجهز ملابسه ويعتني بنظافته لكن هذا الخادم المسكين انتحر بعد أقل من عام في وظيفته الجديدة وترك ورقة مكتوباً عليها (أظن أن الموت سيكون أكثر رحمة من مرافقة وخدمة رجل يريد أن يكون مثل النساء).. وآثرت هذه الحادثة كثيراً في حياة بروميل واختلف مع الأمير الإنجليزي وهرب إلى فرنسا حتى وصل به الحال أن يعرض ملابسه وأحذيته لأصدقائه الجدد.. واعترف أنه كان يتعمد الغرور والتعالي ليصنع لنفسه مكانة في المجتمع، واعترف أيضاً أن النتائج كانت أكبر من التوقعات، ويقول في ذلك: "إن كان هدفك أن تغزو قلب رجل فتحدث دائماً عن عقله وذكائه وحكمته، وإن كان الهدف امرأة فتحدث عن ملابسها وأملأ جيوبك بالحلوى"!.. أما النهاية فاختارها بروميل مثل نهاية خادمه..!!

فرش غرفته المتواضعة بالجاكيتات الفخمة والبنطلونات وأوراق الذكريات.. وانتحر.

نصف العالم

تعددت المصادر وأصبحت الوسائل أكثر من أن تحصى! وتطورت المسألة إلى وجود مراجع وكتب وأبحاث تقودك إلى الهدف المنشود لكن بلا فائدة..!!

وأعتقد وأتمنى أن توافقني وأرجو ألا تستعجل وتطلق حكماً متهوراً ولكن فقط انتظر قليلاً ثم هات ردك النهائي وأسأل الجمهور وأحذف إجابتين وأحذر أن تستعين بصديق لأنك لن تجد أحداً!!.. أقصد أن الأصدقاء لم يعد لهم وجود مقارنة بتلك الليالي الخوالي، فرغم عشرات المؤلفات التي توحي بالطرق المثالية لكسب الآخرين والانفتاح الذي يعيشه الناس خاصة في ظل وجود أدوات الاتصال الحديثة وعلى رأسها السيد الفاضل الإنترنت، والإمبراطور التليفون إلا أن الصداقات تخضع لعوامل التعرية وتتنحى أمام التغيرات الاجتماعية وتنزوي وراء مطالب الحياة المتسارعة فخسرت السباق وتوقفت في منتصف الطريق.

وفي دراسة أصدرتها إحدى الجامعات الإيرلندية قبل عامين أكدت أن الحفاظ على الأصدقاء بدأ يتلاشى خاصة في المدن الصناعية والكبيرة ذات الطابع العملي، وأشارت هذه الدراسة التي أشترك في إنجازها ثلاثة عشر أستاذاً، إليى أن الناس تفضل مع تقدم السنين العيش في المدن المكتظة بالسكان كالعواصم والمناطق الساحلية. وأكدت أن الموظفين يجبرون على اختيار الأصدقاء الجدد من زملاء العمل فالوقت لا يكفي للتواصل مع أصدقاء بمواصفات متقاربة في الفكر والعقلية والطموحات أو محاولة توطيد العلاقة معهم خارج أسوار المؤسسة أو الشركة. وقدمت هذه الدراسة ما يقارب تسع عشرة نصيحة لمن أراد التواءم مع الحياة دون أصدقاء وكأنها تحكم على الصديق بالغياب المؤبد تأكيداً لما قالته مصممة الأزياء الفرنسية الشهيرة شانيل (يا صديقي ليس هناك أصدقاء)!

أما أنت يا صاحبي فلا تيأس ولا تسمع كلامي وكلامهم ولا تصدق أبحاثهم وشمر عن ساعديك وأعلن حالة الطوارئ واستنفذ قواك وترقب الوجوه فالدنيا مازالت بألف خير.. ولعل الزمن يبتسم لك وتجد رفيقاً وصديقاً يساوي العالم كله.. أو حتى نصفه!.

ولا تبكي

طعم الفوز حلو المذاق حتى في البلاستيشن والكيرم والبلوت، لكن الانتصار على الظروف والصعوبات والعقبات ألذ وأجمل وأروع، وهذا باختصار كله ما فعله الأمريكي ديل كارنيجي!!

ففي قرية صغيرة منعزلة أبصر ديل النور وسط أسرة تعاني آلام الفقر ومرارة الحرمان، وأبوين جاهلين لا يملكان أبسط مقومات الحياة الكريمة، وانعكست الأوضاع العائلية المتردية على شخصيته داخل المدرسة، حيث نشأ خجولاً وانطوائياً يحس بالنقص أمام زملائه الأثرياء، ويتلقى منهم نظرات الاحتقار، ويسمع كلمات الاستهزاء وينعقد لسانه من الحياء إذا أراد الحديث معهم.

وكان التلاميذ يتنافسون على الفوز ببطولات الألعاب الرياضية وحاول جاهداً أن يصبح أحد هؤلاء الأبطال لعله ينال احترامهم وتقديرهم لكنه فشل وبجدارة!!.. فقرر الاتجاه إلى مجال آخر، واختار جماعة الخطابة والمناظرات وكل آماله التغلب على خوفه من الكلام أمام الآخرين، وبالفعل وجد ضالته ولم يمض وقت طويل حتى تفوق في مسابقة الإلقاء وتوج بالمركز الأول على مستوى المدرسة، فتغيرت نظرة الجميع إليه وكسب إعجاب الطلاب وأصبحوا يحترمونه ويتقربون منه، ليكتشف ديل من تلك اللحظة أن الاحترام توأم النجاح والإبداع، وأن الخوف هو سبب كل الهزائم والمشاكل.

وتضمي السنون بسرعة ويتخرج ديل من الثانوية ويلتحق بدورة مكثفة لفن الإلقاء، ويعشق عمله ومهنته ويعمل في مدرسة ليلية، ويلقي على طلابه من كبار السن كيف يمكن للإنسان أن يتغلب على ظروفه، ويتخلص من قيود الخوف والخجل، ويعبر عن نفسه بحرية ودون اضطراب، وبدأت دروسه تجتذب الكثيرين وشهرته تنطلق بلاحدود، ليستقبل من المدرسة ويفتتح لنفسه معهداً صغيراً يحمل اسمه، وبعد أقل من عشر سنوات فقط أصبح لذلك المشروع الصغير أكثر من (170) فرعاً منتشرة على أطراف الولايات المتحدة وكندا وأوروبا، وألف ديل قبل المعهد أربعة كتب لم تلق رواجاً بين القراء والباحثين، ثم جاء كتابه الخامس (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) ليسجل أرقاماً قياسية، وتطبع منه (سبعون) طبعة، ويترجم إلى أكثر من ستين لغة من بينها العربية بالطبع، ثم أراد ديل تأليف كتاب آخر يصلح مرجعاً لطلابه، فإذا به يقدم (دع القلق وابدأ الحياة) الذي تخطى الآفاق ونادراً ما تخلو مكتبة في شرق الأرض وغربها من وجوده بين بضاعتها!!

وبعد هذه الخطوات الجبارة وبعد أن وصل ديل إلى عالم الثراء والنجومية سألوه: كيف نجحت بأقل الجهود وأسرع الطرق؟ فقال: أنا نفسي أستغرب كيف حدث هذا رغم أنني لم

أفعل شيئاَ يستحق كل هذا، إنني لم أقل للناس سوى مثلين من أمثلة الشعوب أولهما: لا تعبر جسراً قبل أن تصل إليه.. وثانيهما: لا تبك على ما فات.

وأنت وهو وهي وأنا إذا لم نكن مثل ديل على الأقل تعالوا نسمع كلامه.. فلا تعبر ولا تبكي والباقي على الله!!

.. ولا حتى يوم الطين

بين صفحات التاريخ.. وبين أوراق الماضي.. وبين عناوين الأمس.. أنظر وراءك وستجد أمثلة طويلة وأدلة كثيرة وبراهين تبدأ ولا تنتهي.. سترى الأوفياء يرفعون هاماتهم شامخة.. سترى أيضاً الأنذال والجاحدين وناكري المعروف والجميل واقفين كأنهم خشب مسندة.. وأظن وأتمنى ألا يكون ظني آثماً.. إن الأيام لم تعرف أكثر وقاحة وحقارة وقلة أدب وتربية مثل اعتماد الروميكية قبح الله وجهها!!

كانت وستظل علامة مظلمة في قاموس الناس والبنات والزوجات والأمهات.. سامحها الله!!

كانت اعتماد تعيش مع أهلها في بيت صغير ومتواضع على أطراف إشبيلية أيام حكم ملوك الطوائف في الأندلس.. وكانت تعاني الحرمان والفقر والجوع والبؤس والشقاء والمذلة.. ولاتعرف من حلاوة الدنيا وطعم الحياة أي شيء يستحق الذكر.. فلا ترتدي إلا الثياب القديمة ولاتأكل سوى فضلات طعام الأثرياء والأغنياء.. ثم تمضي الأيام وتلعب الصدفة والمفارقات العجيبة في انتقال اعتماد من العالم السفلي وزمن الانحطاط والذكريات والألم والقسوة والأحزان إلى واقع أكبر من أحلامها وهي تجد نفسها بين غمضة عين وانتباهتها السيدة الأولى حينما رآها ملك إشبيلية المعتمد بن عباد وآثاره جمالها وقوامها وعيناها فوقع في حبها وغرامها فتزوجها بسرعة.. وسكنت الروميكية أفخم القصور وتزينت بأغلى المجوهرات وأحلى العطور.. وتذوقت السعادة وعرفت معنى السرور.. وفوق ذلك غمرها المعتمد بالحب والدلال والدلع وأعطاها كل ما تريد ولم يرفض لها أي طلب.. لكن اعتماد لم تكن تحب أن تتذكر ولو لحظة واحدة أنها كانت معدومة ومسكينة وبنت ناس على قد حالهم.. وفعلا لايجهل ماضيه الا فقير اغتنى أو وضيع ارتقى!!

وحينما أرادت الأقدار أن يكتب اسمها وتخلد قصتها وقعت في شر أعمالها.. فقد كانت اعتماد تتجول في شوارع إشبيلية فرأت بعض البنات الصغار يمشين ويتمرغن في الوحل والطين فاشتهت أن تدغدغ قدميها في ذلك الطين وفاجأت زوجها بهذا الطلب الغريب.. وبالطبع لم يتأخر حاكم إشبيلية وأمر موظفي وخدم وجواري وعمال القصر الملكي أن يخلطوا لها التراب بالعطور الفاخرة حتى تمر سيدة الحسن والجمال بقدميها الكريمتين وتشبع رغبتها العابرة.. وانتهوا من صناعة الخلطة العجيبة.. ورفعت اعتماد فستانها وكشفت عن ساقيها وراحت تتمرغ وسط أغلى طين عرفته البشرية.. وبعد فترة قصيرة غضب منها المعتمد في أحد مشاهد الخلافات الزوجية العادية فأقسمت إنها لم تر منه خيراً طوال حياتها.. فسألها معاتبا ومتحسراً: ولا حتى يوم الطين؟!

يا خـسـارة الطين أيها المعتمد.. وياخسـارة الوفاء يا اعتمـاد.

.. وكانت قليما بريئة

بين آيات سورة يوسف يقول المولى جل شأنه في خطاب موجه للمرأة (إن كيدكن عظيم).. وفي سورة النساء يقول جلت قدرته (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً).. وفي الآيتين دليل واضح وصريح ومباشر أن المرأة أقوى وأذكى وأخطر من الشيطان.. وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!

وبالطبع وبالتأكيد ليس كل النساء شياطين.. وبالطبع وبالتأكيد أن مسألة ربط المرأة بالشيطان هي فكرة شيطانية ليس إلا!! وستبقى أقسى تهمة تواجهها السيدات والآنسات.. ويبدو أن أول جريمة قتل وقعت على سطح الأرض لها علاقة تاريخية بربط المرأة بالشيطان، فحينما هبط آدم عليه السلام من الجنة أصبحت زوجته حواء تنجب في كل مرة ذكراً وأنثى.. وأمر أن يتزوج كل واحد من أبنائه أخته التي لم تولد معه.. واختار هابيل أخت قابيل لكن قابيل رفض إتمام حفل الزفاف وأصر بأن يتزوج هو نفسه شقيقته التي لم تكن تحل له واسمها (قليما) وطالبه أبوه العودة إلى العقل والمنطق وأن يزوجها لهابيل فتجاهل كل هذه النداءات.. ثم أمرهما آدم كما هو معروف في القصة الشهيرة أن يقربا قرباناً لله سبحانه فقدم هابيل وكان عنده أغنام كثيرة جذعة سمينة.. وقرب قابيل حزمة من زرع رديء فنزلت النار وأكلت قربان قابيل كدليل على القبول وتركت قربان هابيل الذي غضب وهدد أخاه وقال له لأقتلنك حتى لا تتزوج أختي فرد عليه هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.. وبعد أيام قليلة وبينما كانا يمشيان في الصحراء استغل قابيل الفرصة وقتل هابيل ليصبح الطريق ممهداً أمامه ليتزوج قليما التي دخلت التاريخ كأول امرأة ترتكب جريمة من أجل عينيها!!

والشاعر العربي القديم يقول:

إن النساء شياطين خُلقن لنا

أعوذ بالله من شر الشياطين

وفي نفس الاتجاه كان المفكر الفرنسي الأسطوري لامرتين يردد "المرأة كتاب أبدع فنان رسم غلافه بدا فتنة للناظرين ووضع مقدمته شاعر فجاءت باسمة كالزهر في الربيع وكتب الشيطان فصوله فكانت خداعاً وشقاء وأحزاناً"!

والشاعر الإغريقي العظيم هوميروس يقول: "أيتها المرأة ليس في الدنيا شيطان أكثر خسة".

وهناك أيضا المثل الألماني "ما لا يقدر عليه الشيطان تقدر عليه المرأة" كإشادة بدهائها وذكائها وقدرتها على المستحيل وصنع المعجزات.

لقد كانت قليما تنام في فراشها ومخدعها ملء جفونها ولم تشترط لا من قابيل ولا من هابيل الموت والدم والجريمة.. لكن الرجال فتشوا عن المرأة كالمعتاد وحملوها المسؤولية ثم ظلوا طوال الأيام وباختلاف الأجيال والعصور يقودونها بغير ذنب اقترفته يداها إلى الظلام.. أليست هي الشيطان.. على الأقل في عيونهم!!

مت مفلساً

آخر شيء يصدقه الفقراء أن إخوانهم الأثرياء يخافون أكثر منهم.. لكن هذه هي الحقيقة.. وهذا ليس كلامي وإنما كلام الخبير الاقتصادي الأمريكي الدكتور ستيفن بولان الذي يؤكد بعد تجاربه الطويلة مع أصحاب المال أنهم لايخشون شيئاً مثل فقدان الثروة خاصة إذا كان أحدهم ولد فقيراً ومعدوماً وكافح وعمل واجتهد حتى حقق أحلامه المالية، فلا يريد أن تدور الأيام وتعيده من جديد إلى تلك الذكريات الحزينة.. أما الذين يرثون عقارات وسيارات وحسابات آبائهم أو أمهاتهم فإنهم أقل خوفاً من العصاميين والمثابرين.

ويقول الدكتور بولان "أتجول في مختلف المدن الأمريكية أقدم النصائح وألقي المحاضرات، ومركز عملي هو منطقة مانهاتن وسط نيويورك وزبائني جميعهم من الأغنياء لكنني لم أر في حياتي أناساً يخافون مثل هؤلاء".. وأشار بولان إلى أن الذي يسخر عمره كله لجمع المال إنما يحول حياته من حياة مريحة إلى حياة مربحة بائعاً الراحة النفسية ومفضلاً الراحة الاقتصادية وفي كتابه (مت مفلساً) يقدم بولان عشرات النصائح لأصحاب الملايين ويقول في أحدها "أول خطوة ارسمها لمن يأتيني بحثاً عن حلول لمشاكله هي أن لا تهتم بتكديس الأموال فتموت وتتركها وإذا فعلت ذلك ستحس بأن عبئاً ثقيلاً قد رفع من على ظهرك وستحس بالغنى الحقيقي".. أما أجمل ما كتبه بولان فهي كلمات ساخرة لن يسمعها أو ينفذها أحد حيث يغطي نفقات موته ودفنه ومراسيم العزاء عليه وأن يكون هذا الشيك بلا رصيد.. أيها الفقراء والضعفاء والمساكين افرحوا قليلاً وشوفوا حال اللي أغناهم الله من الأسهم وغيرها.

فعلاً وكما يقول عبدالله الرويشد "مافيه أحد مرتاح".

1. Cover
2. cover1.html
3. الرجل السابع
4. قبل البداية
5. فقيرة ومراهقة وعاشقة
6. 5445
7. وعند المجانين الخبر اليقين
8. هذا الحبيب يا محب
9. فضيعها الإنسان والكلب حافظ
10. العريس الثالث
11. مكافأة وانتقام
12. نصف مجنون
13. هذا جزائي
14. تنشر صورها
15. جراح وممثل
16. حتى الأقوياء
17. الرجل السابع
18. الغرفة (437)
19. الثالثة فاشلة
20. لكنهم بخلاء
21. زوجوها شايب
22. .. أنت الشمس طالعة
23. كانت تخونه
24. كان صرحاً
25. ثم مليونيراً
26. حتى لو ماتت سوسي
27. لا يعرفون الحقيقة يا جاكي
28. لا تقول الراعي
29. بسرعة البرق
30. لكنهم لا يعرفون شيئاً
31. إنهما لا يجتمعان
32. داخل القلب وداخل المطبخ
33. سيموت الطفل
34. كيف تقول وداعاً
35. شعب متهور

36. ظلموهم يا طرفة
37. أتعس النساء
38. عاشوا وماتوا!
39. لكنه مجرم
40. يكره الشعراء
41. أكثر لحماً
42. ..مغرورة يا بخت الغرور
43. من أهل سدوم إلى رونالدو
44. ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟!
45. ماذا حصل؟!
46. لكنها طويلة
47. على مسمى
48. لا تتكلم يا جبان
49. ضحكت عليه
50. اسمع كلام الراهب
51. البطل البنغالي
52. ..أتركوها أيها الرجال المحترمون!!
53. أحياناً يعطيه
54. مجرد درس
55. هذا يزعجني
56. نصيحة نخلة وأغنية حليم..
57. ..وحبيبته كانت تخونه!!
58. وغيرهم أيضاً
59. وخسرت ماريا كل شيء
60. ناجح ومغرور
61. نصف العالم
62. ولا تبكي
63. ..ولا حتى يوم الطين
64. ..وكانت قليما بريئة
65. مت مفلساً
66. الغلاف